ماريو بينيديتي

عشيقات الماضي البعيد

مختارات قصصية

ترجمة: علاء شنانة



للثقافة والنشر والإعلام

ماريو بينيديتي

عشيقات الماضي البعيد

مختارات قصصية

ترجمة

علاء شنانة

للثقافة والنشر والإعلام



ماريو بينيديتي: عشيقات الماضي البعيد

Book: Asheeqat Almadhi

الكتاب: عشيقات الماضي البعيد

تاليف: ماريو بينيديتي

Mario Benedetti

First Edition: 2016

الطبعة الأولى ٢٠١٦



للثقافة والنشر والإعلام

طوى للثقافة والنشر والإعلام ـ لندن

TUWA MEDIA & PUBLISHING LIMITED

19 TANFIELD AVENUE, LONDON, NW2, UNITED KINGDOM

Tel: 009662108111 - 00966505481425

Email: Tuwa.pub@gmail.com



قدّاس مع خبز محمص

نعم. اسمي ادواردو. إنك تسألني للدخول في محادثة معي بطريقة أو بأخرى، أستطيع أن أفهم هذا. لكنك تعرفني منذ مدة طويلة، ولكن من بعيد. كما إنني أعرفك منذ الفترة التي بدأت تلتقي بأمي في قهوة لارانغا وريفيرا، أو في نفس هذه القهوة. لا تظن أني كنت أتلصص عليكما، لا شيء من هذا. ربما هذا ما ستفكر به، لكنك لا تعرف القصة كلها. أو لعلها أخبرتك أمي بذلك؟ منذ مدة وأنا أرغب في الحديث معك، لكنني لم أجرؤ. وهكذا، بعد كل شيء، أنا ممتن لك إنك سبقتني لذلك. وهل تعلم لم كان لدي رغبة بالحديث معك؟ لأن لدي انطباع أنك رجل طيب. وأمي كانت كذلك. لم نكن نتحدث كثيراً، أنا وهي. ففي البيت، إما أن يكون الصمت ملك الموقف، أو يكون دور أبي في الكلام. لكن أبي كان يتكلم حصراً عند قدومه سكراناً، أي تقريباً كل ليلة، وكان كلامه صراخاً أكثر من أي شيء آخر. كنا ثلاثتنا نخافه: أمي، أختي ميرتا وأنا. بلغت من العمر ثلاثة عشر عاماً ونصف، وتعلمت أشياء كثيرة، بما في ذلك أن الرجال الذين يصرخون ويعاقبون ويشتمون، هم في العمق شياطين مسكينة. ولكن عندها كنت ما زلت صغيراً ولم أعرف ذلك. ميرتا لم تعرف ذلك سابقاً ولا حتى الآن، هي أصغر مني بثلاث

سنوات، وأعلم أنها أحياناً تستيقظ في الليل وتجهش بالبكاء. إنه الخوف...!

هل خفت ذات مرّة؟ يُخيل لـ ميرتا دائماً أن العجوز سيظهر ثملاً، وسينزع حزامه ليضربها.

لم تعتد على الوضع الجديد. أنا على العكس، بدأت بالتعود. لقد ظهرتَ أنت قبل سنة ونصف، ولكن العجوز كان يثمل قبل ذلك بكثير. وليس صحيحاً أنه بدأ يضربنا عندما أدمن الشراب. كان يضربنا أنا وميرتا بالحزام، كان مؤلماً جداً، ولكن كان يضرب أمي بقبضة مقفلة. كان كذلك، ودون سبب مهم: لأن الحساء ساخن جداً، أو لأنه بارد، أو لأنها لم تنتظره حتى عودته في الثالثة صباحاً، أو لأن عيونها متورمة من شدة البكاء. ثم، مع مرور الوقت، كفّت أمي عن البكاء. لا أعرف كيف كانت تفعلها ولكنه عندما يضربها، لم تكن هي تعض على شفاهها، ولا تبكي، وهذا ما كان يثير سخط العجوز أكثر. كانت هي تعلم ذلك، ولكنها كانت تفضل ألا تبكي. لقد عرفتَ أنت أمي عندما كانت قد عانت وتحمّلت الكثير، ولكن أربع سنوات فقط قبل ذلك، ـ تذكر ذلك جيداً ـ كانت ما تزال رائعة وذات شكل لطيف. وامرأة قوية أيضاً.

في بعض الليالي، عندما كان العجوز أخيراً يسقط لفوره في سبات عميق ويبدأ بالشخير، كنا أنا وأمي نحمله إلى السرير.

كان ثقيلاً، كأنه شخص ميت. وهي تتحمل القسط الأكبر. أنا بالكاد كنت أسند رجلاً واحدة، ببنطاله المبلول وحذائه البني ذو الرباط المفكوك. ربما تعتقد أن العجوز كان قاسياً طوال حياته. لكن في الحقيقة لا. فما دمّر أبي، خدعة اقتُرفت ضده. وتحديداً فعلها ابن عم أمي،

وهو يعمل في البلدية. لم أعرف أبداً ماهية تلك الخدعة، ولكن أمي كانت دائماً تقدم اعتذارها للعجوز، لأنها كانت تشعر بالمسؤولية كون أحد أفراد عائلتها أذى أبي بتلك الطريقة.

لم أعرف أبداً ما هي تلك الخدعة، ولكن في الحقيقة، كلما كان أبي يسكر كان يُحملّها الذنب كما لو أنها المذنبة الوحيدة. قبل تلك الخدعة كنا نعيش جيداً. لا يتعلق الأمر بالنقود، لأننا أنا وأختي ولِدنا في الشقة نفسها قرب فيلا دولوروس، لم يكن راتب أبي يكفي لشيء، وكان على أمي أن تصنع المعجزات لتطعمنا وتشتري لنا أحياناً سترة أو حذاءً.

مرّت أيام كثيرة عانينا فيها من الجوع ـ لو تعلمون كم هو قبيح أن تعاني من الجوع ـ ، ولكن في ذلك الوقت على الأقل كان هناك سلام. لم يكن العجوز يسكر، ولم يكن يضربنا، حتى إنه كان يأخذنا للتنزه أحياناً. أظن أنهما لم يحبا بعضهما حباً شديداً أبداً. كانا مختلفين. حتى قبل تلك الخدعة، قبل أن يبدأ أبي بالشرب كان شخصاً عصبياً. كان ينهض أحياناً في الظهر دون أن يكلم أحداً، ولكن على الأقل لم يكن يضربنا ولم يكن يشتم أمي. ليته بقي هكذا مدى الحياة. أتت بعدها المشكلة وانهار، وبدأ بالسهر والعودة دائماً بعد منتصف الليل، برائحة نتنة. كان أسوأ في الأوقات الأخيرة، لأنه كان يسكر أثناء النهار، ولم يكن يترك لنا حتى هذا الوقت للراحة. أنا متأكد من أن الجيران كانوا يسمعون الصراخ، ولكن لم يكن أحد يتكلم، طبعاً، لأن أبي كان رجلاً قوياً وكانوا يخافونه. أنا أيضاً كنت أخافه، ليس من أجلي ومن أجل ميرتا، ولكن من أجل أمي بصفة خاصة. كنت أحياناً لا أذهب إلى

المدرسة، ليس كسلاً، وإنما لكي أبقى قريباً من المنزل، لأنني كنت أخشى أن يأتي العجوز خلال النهار، ثملاً أكثر من المعتاد ويطحنها حتى الموت.

لم أكن أستطيع الدفاع عنها، فأنت تراني نحيل وضعيف، ووقتها كنت أكثر نحولة وضعفاً من الآن، ولكنني كنت أريد أن أكون قريباً لأستدعي الشرطة إذا ما لزم الأمر.

هل تعلم أن أبي وأمي ليسا من هنا؟ فأجدادي من كليهما...، لن أقول إنهما يملكان النقود، ولكن على الأقل يعيشون في أماكن لائقة، بشرفات تطل على الشارع وحمامات (إفرنجية) وحوض. بعد أن حصل ما حصل، ذهبت ميرتا لتعيش مع جدتي خوانا، أم أبي، وأنا الآن في بيت جدتي بلانكا، أم والدتي.

الآن تقريباً سيتشاجران من سيستضيفنا لديه، ولكن عندما تزوج أبي وأمي، كانتا معترضتان على هذا الزواج ـ الآن أعتقد أنه ربما كان عندهما حق ـ وقطعا العلاقة معنا. أقول نحن، لأنه عندما تزوج أبي وأمي كان عمري ستة أشهر. هذا ما أخبروني به ذات مرّة في المدرسة، فهشمت أنف بيتو، ولكن عندما سألت أمي عن الامر، قالت إنه صحيح.

حسناً، لقد كان لدي رغبة بالتحدث معك، لأنك ـ لا أدري كيف سيكون ردك ـ كنت مهماً لي، بكل بساطة لأنك كنت مهماً لأمي. لقد كنت أحبها كثيراً، طبيعي، ولكن أعتقد أني لم أكن أستطيع أن أقول لها ذلك أبداً. كنا خائفين دائماً لدرجة أنه لم يكن هناك وقت للعواطف.

ورغم ذلك عندما لم تكن تراني، كنت أنظر أنا إليها، كنت أشعر

بشعور لا أعرفه، شيء هكذا كعاطفة ولكن ليست شفقة، وإنما مزيج من الحب وأيضاً من السخط لرؤيتها وهي ما زالت شابة ومنتهية، منهكة تماماً بذنب لم تقترفه، وبعقاب لم تكن تستحقه. ربما لاحظت أنت هذا، ولكني أؤكد لك أن أمي كانت ذكية، بالمناسبة أكثر بكثير من أبي، هكذا أظن، وهذا كان الأسوأ لي. معرفة أنها كانت ترى هذه الحياة التعسة بعيون مفتوحة على مصراعيها، لأن لا التعاسة ولا الضرب، ولا حتى الجوع، استطاعوا أبداً أن يُغّيروها. في بعض الأحيان كنت أرى دوائر زرقاء تقريباً حول عينيها، ولكن كانت تنزعج عندما كنت أسألها إذا ما ألّم بها شيء ما. في الحقيقة كانت تدّعي الانزعاج. لم تعاملني بسوء أبداً. ولم تُسئ لأحد.

ولكن قبل أن تظهر أنت، لاحظت أنها كانت تزداد اكتئاباً، أكثر خمولاً، أكثر وحدة. وربما لذلك استطعتُ أن ألاحظ الفرق. إضافة إلى أنها ذات ليلة أتت متأخرة ـ بالرغم من أنها كانت دائماً تحضر قبل أبي ـ ونظرت إلى بطريقة مختلفة، مختلفة كثيراً لدرجة أنني عرفت أن ثمة شيئاً ما قد حدث. كما لو أنها المرّة الأولى التي أحسست أنني أفهمها. عانقتني بقوة، وبخجل، ثم ابتسمت لي. هل تذكر ابتسامتها؟ أنا أذكرها. لقد قلقتُ كثيراً لهذا التغيير، فتغيبت مرتين أو ثلاث عن عملي ـ كنت أعمل وقتها موزعاً في دكان ـ لألحق بها وأعرف ماذا يحدث. كان ذلك عندما رأيتكما. أنا أيضاً شعرت بالسعادة. ربما فكر الناس أنني دون قلب، وأنني سيئ لأني سررت بخداع أمي لأبي. يستطيعون التفكير بذلك. ولذلك لا أقوله لأحد. معك الأمر مختلف. فأنت أحببتها. وهذا بالنسبة لي كان حظاً جيداً لها. لأنها كانت تستحق أن تُحب.

ـ «لقد أحببتها؟ أليس كذلك؟»

لقد رأيتكما كثيراً معاً وأنا تقريباً متأكد.

طبعاً أنا أحاول فهم العجوز أيضاً. من الصعب ذلك، لكنني أحاول. لم أستطع أبداً أن أكرهه، هل تفهمني؟ ربما لأنه على الرغم مما فعله، يبقى أبي. عندما كان يضربنا أنا وميرتا، أو عندما كان يتهجم على أمي، في خضم الرعب كنت أحس بالشفقة. الشفقة عليه، عليها، على ميرتا، وعلي. كما أشعر بالشفقة الآن، الآن حيث قتل أمي ومن يعلم كم سيمضي في السجن. لم أكن أريد أن أذهب في البداية، ولكن منذ شهر على الأقل بدأت بزيارته إلى ميغيليتا وهو يقبل رؤيتي.

يبدو لي من الغريب أن أراه طبيعياً، أقصد دون أن أجده ثملاً. ينظر إلي، وفي أغلب المرات لا يحدثني بشيء. أعتقد أنه لن يضربني عند خروجه. كما أنني سأكون رجلاً عندها، وربما أكون قد تزوجت ولدي أولاد. ولكن أنا لن أضرب أولادي.

ـ «ألا تظن ذلك؟»، لأنني أيضاً على يقين أنه ما كان سيضربنا لو لم يكن سكيّراً.

ـ «أم أنك تعتقد العكس؟ هل تعتقد أنه كان سيقتل أمي ذلك المساء، بعد أن لحق بي ليعاقبني أنا، وشاهدكما أخيراً معاً؟ لا أعتقد».

تخيّل...، لم يفعل لك شيئاً. فقط بعد ذلك عندما شرب أكثر من المعتاد، هاجم أمي. أنا أظن أنه، في حالة أخرى، كان سيفهم حاجة أمي للحب، حاجتها للحنان، هو الذي أخذ يشبعها ضرباً. لأن أمي كانت طيبة. عليك أن تعرف ذلك كما أعرفه أنا. لذلك، قبل لحظات، عندما اقتربت مني ودعوتني لتناول القهوة مع الخبز المحمص، هنا وفي المكان نفسه الذي كنتما تجتمعان فيه، شعرتُ أن علي أن أقص عليك

كل هذا. ربما لم تكن تعرف شيئاً، أو كنت تعرف جزءاً منه، لأن أمي كانت صامتة لاسيما أنها لم تكن تحب أن تتكلم عن نفسها.

الآن أنا واثق أني فعلتُ حسناً. لأنك تبكي، وبما أن أمي ميتة، فهذا بمثابة جائزة لها. لأنها لم تبكِ أبداً.

حلم أرامل

ايوجينيا، ايريس، لوثيا ونيبيفيس كنّ صديقات منذ الابتدائية. يجتمعن كل أسبوعين لتداول النميمة والاشتياقات ما لم تكن إحداهن في رحلة.

الأربعة كن متزوجات، لكن من دون أولاد. ونظرا لمهن أزواجهن المربحة ـ أحدهم محامٍ، اثنان محاسبان، ومهندس معماري ـ فقد كانوا يتمتعون بمستوى حياة جيد، استغلوه للدخول في نقاشات ثقافية مختلفة.

في أحد تلك اللقاءات طرحت ايريس على صديقاتها أطروحة فذة،

ـ «هل تعلمن بم كنت أفكر؟» إن أزواجنا الأعزاء هم أكبر منا سناً، وهكذا فالاحتمال الأغلب هو موتهم قبلنا. أرجو أن لا يحدث ذلك، لكن هذا على الأغلب ما سيحدث. عندها، ما بإمكاننا فعله؟ فكرت وفكرت، من أرق لأرق، وصلت إلى نتيجة مفادها أن في هذه الحالة غير المحمودة، نحن، أربعة أرامل ما زلن على قيد الحياة، بإمكاننا استئجار أو شراء، منزل مريح تماماً، بغرفة نوم لكل منا، وغرفة غسيل واحدة، ومطبخ واحد فقط. لماذا أكثر؟ وسيارة واحدة فقط، ندفع تكاليفها فيما بيننا. ما رأيكن؟ لقد تكلمت مع زوجي ولم يمانع.

نظرت كل منهن إلى الأخريات مصعوقات تقريباً، لكن بعد نحو نصف ساعة رسمن ابتسامة من الأمل.

بعد ستة أشهر من تلك الجمعة الخاصة جداً، أحد تلك الأربعة، لوثيا ذات الشعر الأحمر، توفيت نتيجة سكتة قلبية غير متوقعة. لقد كانت ضربة قوية للثلاثة الأخريات، كما لو أن الطفولة كانت قد تحطمت إلى الأبد. أيضاً لادموندو، أرمل لوثيا فقد احتاج وقتاً ليعود إلى طبيعته.

لم يكن قد مضى عام على تلك الفاجعة، عندما دعا الأرمل، الأزواج الثلاثة الآخرين وطرح عليهم أطروحة:

ـ «هل تعلمون بماذا كنت أفكر؟ كما حصل وبقيت أرملاً، فهذا بإمكانه أن يحصل لكم أيضاً. إنه ليس تكهن، حاولوا أن تفهموني جيداً، إنه فقط احتمال، لعبة حظ. إذا ما حصل لكم، فماذا ستفعلون؟ فكرت وفكرت ووصلت إلى استنتاج: في هذه الحالة الحزينة لدينا، أربعة أرامل في هامش معين للتعايش، بإمكاننا استئجار أو شراء منزل مريح، بأربع غرف نوم مستقلة، وغرفة غسيل، وطباخة واحدة، وسيارة واحدة فقط، مستعملة لكن في حالة جيدة، سنستعملها وندفع تكاليفها فيما بيننا نحن الأربعة. ما رأيكم؟»

الثلاثة الآخرون بقوا على حالهم بأفواههم المفتوحة. في النهاية عطس أحدهم، وآخر تثاءب، والثالث فرك أذنه. فجأة، ومن دون سابق إنذار، ولد في نظرة الرجال الثلاثة، والمتعبين شيئاً ما، من بريق أمل.

رجال الإطفاء

لم يكن (اوليغاريو) فقط قادراً على معرفة الأحداث قبل وقوعها، وإنما أيضاً كان دائماً فخوراً بهذه القدرة. كان أحياناً يبقى مستغرقاً لبرهة، ليقول بعد ذلك:

«غداً ستمطر...» وكانت تمطر بالفعل.

مرات أخرى كان يحك رقبته ويقول: «الثلاثاء سيكون الرقم ٥٧ على رأس قائمة اليانصيب».

كان يحظى باحترام ليس له حدود بين أصدقائه. بعضهم يذكرون نبوئته الأكثر شهرة. كانوا يسيرون معه قبالة الجامعة، عندما فجأة اقتحم سكون الهواء الصباحي صوت وحنق رجال الإطفاء. ابتسم (اوليغاريو) بحساسية، وقال:

«أظن أن حريقاً قد اندلع في منزلي».

نادوا سيارة أجرة وأمروا السائق أن يتبع رجال الإطفاء عن قرب. انعطفوا عند شارع ريفيرا وقال (اوليغاريو):

«أنا متأكد تقريباً من أن منزلي يحترق».

حافظ الأصدقاء على صمت واحترام مطبق، لقد كانوا يقدرونه كثيراً.

تابع رجال الإطفاء في شارع بيريرا ووصل التوتر إلى ذروته. عندما انعطفوا إلى الشارع الذي كان يعيش فيه (اوليغاريو)، كان الأصدقاء قد تيبسوا من شدة المفاجأة.

أخيراً، توقفت سيارة رجال الإطفاء أمام منزل (اوليغاريو) والنيران ترتفع منه، وبدأ الرجال بتجهيز التحضيرات بصرامة.

من حين لآخر، كانت تتطاير ألسنة النيران في الهواء من نوافذ الطابق العلوي.

هبط (اوليغاريو) من سيارة الأجرة بكل اعتدال. عدّل ربطة العنق، ثم، وكما الفائز المتواضع، أخذ يستقبل التهاني والأحضان من أصدقائه الأوفياء.

بلوغ الحلم

ما يحدث يا دكتور في حالتي أن الأحلام تأتيني متواترة الموضوعات. كان هناك وقت كنت أحلم فيه بفيضانات، وتطفح الأنهار فجأة أو تفيض وتغمر الحقول، والشوارع، والبيوت وحتى سريري.

تخيل أنني تعلمت السباحة في الأحلام ونتيجة لذلك استطعت أن أنجو من الكوارث الطبيعية.

للأسف! هذه المهارة كانت سارية المفعول في الأحلام فقط، ولكن في الواقع حاولت أن أمارسها في مسبح فندق ذات مرة فشارفت على الاختناق.

وبعد مدة كنت أحلم بطائرات، تحديداً، بطائرة واحدة فقط، كانت هي نفسها دائماً. كانت المضيفة قبيحة وتعاملني بشكل سيئ.

كانت تعطي الجميع شمبانيا وتستثنيني.

سألتها عن السبب فنظرت إلى بحقد مسبق وأجابتني: «أنت تعلم جيداً لماذا».

فاجأتني تلك الطريقة الفجة في التعامل التي كانت على وشك أن توقظني، إضافة إلى أنني لم أفهم ما تقصده، وبينما كانت تساورني الشكوك، سقطت المضيفة القبيحة في الممر بسبب اصطدام الطائرة في

مطب جوي فارتفعت تنورتها، وعندها استطعت أن أتيقن أنها لم تكن ترتدي سروالاً داخلياً. استيقظت في تلك اللحظة، وفوجئت أنني لم أكن في سريري كالمعتاد وإنما في طائرة، الصف(٧)، المقعد(د)، ومضيفة بوجه الجيوكاندا تعرض علي كاساً من الشمبانيا بإنجليزية بسيطة.

كما تري يا دكتور، أحياناً تكون الأحلام أجمل من الحقيقة والعكس أيضاً صحيح. هل تذكر ما قاله كانط؟ «الحلم هو فن شعري غير إرادي».

في مرحلة أخرى حلمت مراراً أن لدي أطفالاً كثر! أنا، العازب وليس لي أبناء أبداً. يبدو لي أنه فعل غير مسؤول أن تنجب كائنات جديدة في هذا العالم.

ـ هل لدى حضرتك أولاد؟

خمسة؟

عذراً!

أحيانا أقول سخافات.

أطفال أحلامي كانوا صغاراً جداً، بعضهم كان يحبو وآخرون يلهون لوقت طويل في الحمام، يبدو أنهم كانوا أيتاماً فاقدي الأم، بما أنها لم تظهر أبداً ولم يتعلموا قول كلمة (ماما).

في الحقيقة، لم يتعلموا قول كلمة (بابا) أيضاً، وإنما كانوا يدعونني «تركي» بلسانهم الأقرط.

أنا الذي ليس لديه أصول تركية على الإطلاق، «تركي، تعال»، «تركي، أريد السيريلاك»، «تركي، أنا تبولت».

في أحد هذه الأحلام، كنت أهبط درجاً متداعياً، وفجأة سقطت، عندها نظر إلي أكبر أطفالي بدون رحمة وقال: «يا تركي أنك تستحقها». كان تعليقاً مزعجاً لدرجة أنه أيقظني.

في وقت لاحق كنت أحلم بكرة القدم، كنت ألعب دائماً حارس مرمى، وكانت تمطر دائماً قبل المباراة، وهكذا يكون الملعب رطباً وكان لا مناص من أن تتشكل برك من المياه ليسدد عندها المهاجم الكرة كقذيفة، كنت أتمكن في البداية من صدها، ولكن بعدها كانت الكرة تفلت مني وتتجاوز خط المرمى بهيبة كبيرة.

استيقظت بحماسة وأنا أتنفس بصعوبة عند هذه النقطة من المباراة (لم تكن حالي أفضل من ذلك)، لكن كان ما زال ينقصني سماع المدرجات وراء ظهري تصرخ بي: خائن، مباع، كم يدفعون لك؟ وهراءات أخرى.

في المرات الأخيرة مغامراتي الليلية كانت تغزوها السينما، ليست السينما الحالية الآخذة بالهبوط، وإنما سينما أيام زمان، تلك التي كانت تشدنا وتستقر في حياتنا بوجوه وأفعال شكلت قدوة لنا.

أنا أحلم بممثلات... ويا لهن من ممثلات لنقل: (مارلين مونرو)، (كلاوديا كاردينالي)، (هاريت إنديرسون)، (سونيا براغا)، (كاثرين دينوف)، (أنوك إيمي)، (ليف أولمان)، (غليندا جاكسون) وروائع أخرى.

بالنسبة للممثلين، فإن (مور فيوس) لا يمنحهم تأشيرة دخول إلى أحلامي. كما ترى يا دكتور، أغلبهن محنكات، أو لم يعدن كذلك، لكن أنا أحلم بهن كما يظهرن في تلك الأفلام، عندما يقول (فيريبغرافيا)

لـ (كلاوديا كاردينالي)، لا يتعلق الأمر بالآن وليست هي سيئة الآن أيضاً وإنما في فيلم بالفتاة مع (فاليغليا)، عندما كان لها ٢١ عام.

(مارلين مونرو)، مثلاً، تقترب مني وتقول لي بصوت حنون وسري: «I dont love Kennedy. I love you. Only you». لتعلم حضرتك أن الممثلات في أحلامي يتكلمن أحياناً بشريط ترجمة ومرات أخرى مدبلجة إلى الاسبانية.

أنا أفضل الشريط، بما أنه صوت ما مثل صوت (غليندا جاكسون) أو (كاثيرين دينوف)، ولا يمكن استبداله.

حسناً، في الواقع لقد أتيت لأستشيرك لأنني البارحة حلمت مع (انوك ايميي)، ليست كما هي الآن ـ والتي أيضاً ليست سيئة ـ وإنما عندما كان لها من العمر ٢٦ عاماً كانت خرافية، لا تكن سيء الظن. لم ألمسها ولم تلمسني. ببساطة أطلت من نافذة في شقتي وقالت فقط (بصوت مدبلج): «غداً مساء سآتي لرؤيتك، ولكن ليس إلى شقتك وإنما إلى سريرك... لا تنساه». كيف أنسى ذلك! ما كنت أريد معرفته يا دكتور، إذا ما كانت الواقيات التي أشتريها من الصيدلية تخدمني في الأحلام. لأنني... هل تعلم؟ لا أريد أن أتركها حامل.

حقيبة الرحلات القصيرة

عزيزتي: عندما ذهبت، عندما قررتُ أخيراً الذهاب، لأنه لم يعد من الممكن بقائي متعايشاً مع ترياق الخوف، وشعرت أنني شيئاً فشيئاً أصبحت أكره أماكني المفضلة أو الأشجار المتمايلة، ولم يعد لدي وقت ولا رغبة لأن ألجأ إلى ساحة الحي فلوريس، والأصدقاء ما عادوا أصدقاء، وكان هناك جثث في المزابل أكثر من الجنائز، ففتحت عندها حقيبة الرحلات القصيرة ـ برغم أنني كنت أعرف أن هذه الرحلة ستكون طويلة ـ وبدأت بإدراج أشياء لا على التعيين، أشياء ليس لها قيمة لكنها حميمة: صور اصطناعية لما هو سعيد، حروف كنت جمعتها معك تروي معاناة عناقات أخيرة في الحدود الأولى، غروبات بدون صخب، ابتسامات صفراء والعكس، اضمحلالات وبسالات.

مع هذه الحقيبة للرحلات القصيرة مشيت وطفت أماكن كثيرة. كنت من حين إلى آخر أعمل بيدين مرنتين وعينين جافتين، لأكسب الخبز، النبيذ، السقف والفراش. ومع ذلك لم يكن لدي علاقة وثيقة مع حقيبة الرحلات القصيرة.

وبالرغم من ذلك، وفي أحد أيام الأحد، عندما أصبحت الوحدة صمتاً لا يطاق، أخرجت الحقيبة من الخزانة وأخرجت منها بعض التذكارات، واحدة من كل شيء، حتى لا يثقل كاهلي. كان في يدي

كتاب يحل محل وسادة وربما قرأته ما يقرب العشرين مرة، لكنني الآن اضطلعت على بعض صفحاته ولم يقل شيئاً، لم يسألني، ولم يجبني على شيء، كان غريباً عني، فرميته.

في أحد آخر، أنقذت صورة كانت قد أصبحت باهتة وكان فيها بعض الشخصيات التي شغلت حيزاً من حياتي. اثنان منهم من يدري أين هما، واحد ما زال مخلصاً مع نفسه، ثلاثة آخرون، أحدهم قُتل ذات ليلة على يد العسكريين، واثنان آخران أصبحا مع الوقت ناعمين، واشيين أنيقين، ويتمتعان اليوم باحترام فقدان الذاكرة الشعبي.

الأخير كان أنا، لكن أنا أيضاً أبدو شخصاً آخر...! بالكاد أستطيع التعرف على نفسي، ربما لأنني عندما أواجه نفسي في المرآة أجد نفسي لست مهلهلاً. بعد كل شيء، إنها صورة منتهية، فاقدة للصلاحية، لهذا رميتها.

في أحد آخر أخرجت ساعة ضد الماء والكسر من الحقيبة. إنها من صنع شركة سويسرية جيدة، لكنها كانت متوقفة عند الساعة... الدقيقة... واللحظة التي قتلوا فيها فينانثيو في الشارع، أنت تعلمين من هو.

لماذا أريد ساعة كانت فقط تحسب وتحدد الألم؟ وهكذا رميتها.

أحد تلو أحد كنت أفرغ الحقيبة: قصاصة أظافر، أقلام رصاص، نظارات شمسيّة، قصاصات من جرائد يومية، مهدئات، أجندات، جوازات سفر منتهية، مزيد من الصور، رسائل من أصدقاء وأعداء.

في الحقيقة كل شيء كان يبدو لي أنه فاقد الصلاحية، غير معبر، صامت، مزعزع، ولا يمت بصلة لشئ.

مع ذلك، البارحة الأحد أدخلت يدي مرة أخرى إلى بئر الماضي

واصطدمت يدي بشيء لك: منديلك الحريري الأزرق، هذا الذي كان يلف عنقك الجميل في ثلاثة من الفصول الأربعة. هم أنهوك، وأنا هنا وحيد بشكل لا يطاق. فتلوك بدلاً مني. إنه لقاسٍ تقبل ذلك، اللعنة، إنك أنت موتي المرافق لي.

أي أنني هذه المرة سأرمي إلى القمامة حقيبة الرحلات القصيرة المسكينة وسأحتفظ فقط بمنديلك الأزرق. سأبقى معك حتى الرحلة الطويلة.

الوقت يمر

ـ «هل فعلت هذا ذات مرة؟» سألت غلوريا بابتسامة عفوية تماماً لدرجة أن سيباستيان، الذي أتم للتو خمسة عشر عاماً، شعر أن آذانه ترتعد.

ـ لا. أبداً.

كان هذا الحوار منذ سنوات طويلة، لكن سيباستيان لم ينسى أبداً ما تلا ذلك.

كانت غلوريا، كما اسمها ـ المزيف، بالتأكيد ـ يشير، إلى العاهرة الأشهر في شارع فينيستيري، لكن جاذبيتها كانت تعتمد على أن شكلها لم يكن يشبه العاهرة، ولا كانت تلبس ولا تتحرك مثل العاهرات. لقد كانت فقط عشرينية ببساطة جميلة، جاذبة للرجال بلطف مفرط، مشيرة لهم منذ البداية أن ليس لديها ميل لحب وحيد.

ـ هل تريد أن تفتتح معي؟

ـ إذا ما سمحت بذلك.

أمام ذلك التعامل المحترم غير المنتظر، انفجرت غلوريا في قهقهة حادة، واستطاعت أخيراً كبح خجل سيباستيان. ولج كلاهما تقريباً راكضين في غابة الصفصاف المتربعة على ضفة نهر.

عندما وجدت غلوريا المكان الذي بدا لها مناسباً وبعيداً عن الكهول الفضوليين ذوي النفوس الخضراء، استقبلت سيباستيان بحنان، نزعت له الشورت ببطء، جعلته يعري نصفها، وعلى الفور بدأت بإعطاء الكورس التحضيري الذي بلغ الذروة، الأساسي جداً والحنون جداً، لدرجة أن سيباستيان كان على وشك البكاء من الفرحة، بالطبع.

بالرغم من براءته، الا ان سيباستيان كان حذراً من أن لا يعطي أي تفصيل عن نفسه ـ اسم عائلته، مسكنه، عائلته،...الخ ـ . فبعد كل شيء كان يعرف أن هذه هي قوانين اللعبة.

تضمن الكورس الكامل خمسة دروس، حيث نال سيباستيان من صديقته الفخورة والكريمة شهادة مهارة ساذجة، ولم يدم التدريب أكثر، لأن والد سيباستيان، الذي يدعى باسيليو اثيفيس، أرمل مبكر، قرر تغيير المنزل، لأن المنزل الحالي كان يحتوي الكثير من الذكريات والحنين لزوجته التي توفيت وهي ما تزال شابة في حادث على الطريق. بالغ باسيليو في الرغبة بالابتعاد ووجد منزلاً لطيفاً في الطرف الآخر من المدينة.

حتى يودع غلوريا بذوق، كان على سيباستيان أن ينتظرها عند ساعة الغسق، حتى تعود هي من تلبية زبون متطلب ومُلّح. في الحقيقة، لقد كان وداعاً حديثاً، لكن بجرعة من المشاعر والامتنانات.

خلال عامين حافظ سيباستيان على ذلك الافتتاح، في العلية المرتبة في ذاكرته. كان يعرف أنه ذات يوم ستكون نافعة له في تطور مشواره المستقبلي.

سيباستيان في حيه الجديد، اجتماعي وذو طبع فكاهي، أقام

علاقات مع كلا الجنسين. وفي المرحلة الجامعية، كان يتدرب على الخبث الذي جعله يترك عدة فتيات في الطريق. لم يكن والده يلقي عليه بالأسئلة، إجمالاً كان تعليقه ساخرا، وكان سيباستيان يتلقاه كنموذج للصحبة، شيء، مثل تبادل الفتيات. قرّب ترمل باسيليو ويُتم سيباستيان بينهما، بالرغم من أنهما نادراً ما كانا يذكران الام الراحلة.

اليوم الذي أتم فيه سيباستيان ثلاثة وعشرين عاماً، طلب منه باسيليو أن يتناولا العشاء في المنزل.

«هناك مفاجأة لك. سترى».

كلما كان يتقدم موعد المساء، كان باسيليو يصبح أكثر عصبية. كان قد أوصى على العشاء التذكاري من مطعم ذي نجوم خمسة. بحركة أبوية متنازلة، صب كأسين من الويسكي، وفي منتصف الكأس الثاني كان لصوت الجملة دوي طلقة: «سيباستيان، سأتزوج».

نهض سيباستيان، ومن دون أن يقول أي كلمة عانقه. لمعت عينا باسيليو.

ـ «يشعرني بالسعادة أن يبدو لك الأمر جيداً. على أية حال، بإمكانك أن تكون متأكداً أن صورة والدتك ستبقى دون أن تُمس بيننا. رغم سنواتي الأربعين ونيف، كان من القسوة البقاء دون حب، دون جسد في السرير. إنك تفهم هذا، أليس كذلك؟»

ـ «نعم، بالطبع».

رن الجرس في الثامنة ونهض باسيليو مهتاجاً.

«بالتأكيد هي. كنت أريد استغلال عيد ميلادك ليتم التعارف بينكما».

سمع سيباستيان أن باب البيت في الشارع قد فُتح. دخل الأب بعد عشرة دقائق مع امرأة ما زالت شابة وجذابة، حيث تفحصت سيباستيان بنظرة ممزوجة بالفتنة مع الارتباك.

ـ «حسناً، حسناً»، قال باسيليو. «لقد حانت اللحظة الحاسمة للتعارف. هذا هو سيباستيان، ابني الوحيد. وهذه هي كارميلا، زوجتي المستقبلية».

كذروة لتلك اللحظة الحماسية، لم يستطع باسيليو إمساك نفسه عن قهقهة عصبية.

لكن سيباستيان كان يعرف ـ وهي أيضاً ـ أن كارميلا هذه لم تكن كارميلا، وإنما الصبية غلوريا ذات الخمسة عشر ربيعاً التي عرفها.

عائلي

لم يكن لاسدروبال أبداً خطيبة أو زوجة أو صديقة. لم يكن لديه؛ لأنه لا يمكن لقلبه أن يتسع لامرأتين. فهو، منذ مراهقته، كان مغرماً بإينيس. المشكلة كانت أن اينيس هي امرأة ادواردو سيرنا، صديقه الصدوق. لم يُلمّح اسدروبال لاينيس أبداً بأي إشارة صغيرة عن مشاعره. ببساطة كان قد انضم إلى العائلة سيرنا، التي كانت تضم أيضاً اندريس، الأخ الأصغر لادواردو.

مرة واحدة في الأسبوع، غالباً أيام السبت، كانوا يلتقون لتناول الغداء في مطعم شبه بري في الساحل. حيث كانت الدعابة والحديث حول النميمات السياسية للأسبوع. كان كلٌ يقص ما يتعلق بعمله: كان ادواردو محامياً، اندريس ناشراً، اينيس رسامة، اسدروبال مدرس جامعي. كان اندريس، من بين الأربعة، الذين لم يكن حضورهم متواصل. فارتباطاته بعمله، والمؤتمرات العالمية، كانت تدفعه عادة إلى السفر إلى الخارج.

أثناء ذلك، كان اسدروبال يعاني. كانت اينيس تصبح يانعة أكثر، أكثر رونقاً، وأكثر إثارة.

الابتسامات المفتوحة التي كانت توجهها لاسدروبال، كان هذا يؤرشفها في صندوق ذكرياته، ولكن لم يكن ليغيب عن ذهنه، أنه

بابتسامة أو من دونها، هناك من يملكها، ليلة تلو الأخرى في سريره، كان ادواردو سعيد الحظ.

لكن اسدروبال كان يحلم بكل تفاصيل اينيس. كانت هي صاحبة أرقه وهجعاته.

ـ «لا أستطيع الاستمرار هكذا مستحيل».

وعندما رن الهاتف. تعرف على الفور إلى الصوت المرتعد لسكرتيرة ادواردو: «أخبار سيئة يا سيد اسدروبال. الدكتور ادواردو توفي هذا الصباح في سكتة قلبية».

كان الاضطراب بالغاً. فقد كان ادوراد يبلغ من العمر اثنين وأربعين عاماً فقط. خرج اسدروبال شبه راكض باتجاه شقة عائلة سيرنا. كانت اينيس تبكي، متأثرة وقلقة وهي تعانق اسدروبال. لم يكن اندرس هناك، فقد كان موجوداً في معرض في فرانكفورت.

ـ «لقد كنا سعداء». تمتمت اينيس بصوت محلل مضطر، غير قابل للاستئناف.

بعد المراسم والجنازة، عاد اسدروبال إلى منزله، وهو ما يزال مهموماً. مع ذلك، عندما صب كأساً من الويسكي واضطجع في الكرسي الهزاز الذي كان كمنزله، ظهر انعكاس غريب في الكأس الطويل البوهيمي، وهو ترجمه كإشارة، كإعلان. وبما أنه كان لوحده فقد ترجمها إلى كلمات.

ـ الآن أصبحت اينيس حرة.

امتلأ صدره بالسعادة والحميمية الأنانية.

ترك عدة أيام تمضي قبل أن يتصل مجدداً باينيس، لكن عندما قرر أخيراً، كانت هي قد ذهبت إلى سالتو، حيث تعيش والدتها.

مضت ستة أشهر قبل أن تعود الأرملة. كان عندها عندما قرر اسدروبال على امتلاك الشجاعة وقرر أن يمد سنارته.

استقبلته اينيس بساعدين مفتوحين، ودودة كما كانت دائماً. قالت إنها كانت قد بقيت لوقت أطول في سالتو لتصاحب أمها، حيث كان قد سبب لها موت ادواردو أيضاً ضربة موجعة. تكلمت طويلاً عن جمال الطبيعة في سالتو، الغروبات إلى جانب النهر، النمط الهادئ والمؤثر لأناس القرية.

نتج صمت عقيم، وبالضبط عندما قرر أن يبدأ اسدروبال الحديث عن المستقبل المشترك، كانت هي قد رسمت ابتسامتها المعروفة قبل أن تقول:

ـ «يا للحظ إنك حضرت! اليوم بالذات كنت سأرسل لك الدعوة. لا أدري إن كنت تعلم أنني في الشهر القادم سأتزوج باندريس، صهري. فرصة للاستمرار العائلي، ألا تظن ذلك؟ اتفقنا اندرس وأنا كنا على أن نطلب منك أن تكون أنت عراب الزفاف».

عشيقات الماضي البعيد

في ذلك الخريف المضيء من عام ١٩٤٤، طاف رودريغو ازناريس الجمهورية بأكملها. كان يشغل منصب سكرتير الدكتور مونتيس، صاحب ـ حسب قوله ـ خطة ثورية للتدريب الرياضي، قرر أن ينشرها في المحافظات التسعة عشر في البلاد. أيضاً كانت تشكل جزءاً من حملة سبع فتيات نحيلات، طالبات لتخصصات جمبازية.

كان رودريغو المكلف بصياغة الخطاب الأساسي لمونتيس، الذي كان هذا يعدله حسب صفات كل منطقة. أيضاً كان يسجل أسئلة الموجودين، التي يجب الإجابة عنها في الفرصة التالية.

قبل وبعد كل خطبة، كانت الشابات تقمن باستعراضهن، وتمارينهن الرياضية، شقلباتهن وانحناءاتهن، وكان الحضور الريفي يصفق لهن بشدة، وكن يلفتن الانتباه أكثر بكثير من استعارات الدكتور مانتيس.

بعد العشاء، كنا نرتاد جميعنا إضافة إلى الدكتور النادي المحلي، حيث كانت تنظم بشكل عام وصلات من الرقص احتفالاً بالزيارة. لم تكن قد حلت أوقات الروك بعد، حيث الراقصون يحددون مسافات. كان التانغو، الرقصة الأولى للعناق في التاريخ، ومن أجل هذا، كانت تسمح بالتدرب فوق قمم ومنخفضات الجسد الآخر، لتكون أولى التعاليم الشبقية.

بالنسبة لروردريغو، كان هذا الراتب المطموع به للسفرات. لكن الأفضل كان العودة في الحافلة التي كان يتعاقد معها مونتيس. فهناك كانت ناتاليا اوريبي، شابة رشيقة سمراء ذات ظهور متواضع، كانت تلف رودريغو بلطفها الهادئ واللهجة الانيقة ليديها. كانا يقبلان بعضهما فقط عندما تصبح الحافلة مظلمة. لحظات المرور في الأنفاق كانت عادة اللحظات الأكثر فسقاً.

وصول الشتاء الأكثر قسوة في القرن؛ وضع نهاية لتلك الجولات المهنية للدكتور مونتيس. رودريغو وناتاليا، اللذين كانا قد اتفقا على لقاءات أخرى، لم يريا بعضهما مجدداً أبداً. بعد مدة علم أن الشابة كانت قد انتقلت إلى كندا مع عائلتها.

بعد أكثر من نصف قرن، في يوم ١٥ كانون أول من العام ٢٠٠٠، دخل رودريغو إلى صالة سينما، ليستمتع بالهواء البارد أكثر منه بالفيلم. ففي عمره، شدة الحر كانت تضايقه، تمنعه من التنفس بسهولة.

فجأة حصل انقطاع في الفيلم وأضيئت الصالة. لم يكن هناك الكثير من الناس، في مجموعهم عشرون متفرجاً. ثلاثة صفوف إلى الأمام، أيضاً كانت وحيدة، عجوز نحيلة لكن انيقة. عندما بدأ عرض الفيلم، تركت المرأة مقعدها وأتت لتجلس جانب رودريغو.

ـ جنابك رودريغو ازناريا، صحيح؟

ـ نعم.

ـ يا للحظ. أنا ناتاليا اوريبي، هل تذكر؟ فتح رودريغو عينيه الشغوفة. لم يكن بإمكانه أن يصدق.

ـ ما رأيك لو تركنا هذه الدراما الشنيعة ودخلنا مقهى؟

ذهبا إلى المقهى واستطاعا أن يجلسا.

استغرق بهما الحديث طويلاً بين جعة وأخرى. رودريغو المحاسب العام، كان أرملاً. ابنه الوحيد، كيميائي صناعي، يقيم في إيطاليا.

ناتاليا، طبيبة نفسية متقاعدة، كانت قد تزوجت مرتين: إحداهما في كندا، بطيار في مونتريال، انفصلت عنه بعد ثلاث سنوات، من دون أبناء. وأخرى في فالبارايسو في تشيلي، أستاذ في الفلسفة، تركها بعد سبع سنوات أرملة مع ابنتها، التي تعيش في مورثيا وأنجبت لها حفيدين.

بينما كانت تتحدث، كان رودريغو يحاول فك اللغز، في ذلك الوجه شبه الثمانيني، الرشاقة والبراءة للشابة القديمة. على الأقل البهجة ما زالت موجودة فيها.

ـ بإمكاني التعرف عليك أكثر؟ قال. ابتسامتك ما زالت هي نفسها وما زالت تعجبني.

عند هذا، قالت هي: «ليس المرء من يبتسم وإنما التجاعيد».

ـ كم لك من العمر الآن؟

ـ واحد وثمانون. وأنت؟

ـ تسعة وسبعون.

ـ لسنا بهذا السوء.

ـ صحيح أليس كذلك؟

ـ هل تتذكرين رحلات الحافلة؟

ـ لم أنسها أبداً.

ـ لكنك اختفيت.

ـ ذهبنا على الفور إلى كندا ولم يكن لدي عنوانك ولا رقم هاتفك.

عمّ الصمت، لكن لفترة قصيرة. تركت هي مقعدها وذهبت لتجلس بالقرب من رودريغو. بعد ذلك، وكما في خريف عام ٤٤، أسندت رأسها إلى الكتف الذي وجدته من جديد.

ـ ناتاليا، قال.

بقيت هي صامتة، لكن لاهتزاز معين في ذلك الكتف العجوز، الذي كان مسندها، عرفت مسبقاً ما سيكون لاحقاً.

ـ «ناتاليا»، كرر هو، بصوت متردد ومتأمل، «متى نتزوج؟».

معلومات حول (براوليو)

كان براوليو موضوع حديثنا اليومي. لم يعرفه أي منا، ولا حتى كنا رأيناه في صورة، لكن كان دائماً بطل ثرثرتنا ونميمتنا. الأكبر في مجموعتنا أو قبيلتنا، كان لوكاس وله من العمر خمسة عشر عاماً. أنا كنت الأصغر باثني عشر عاماً، وفي المنتصف كان راميرو بثلاثة عشر ولويس بأربعة عشر.

حسب معلومات كان قد جمعها راميرو، فبراوليو غير المرئي، وهو أكبر منا بقليل، كان صاحب دراجة هوائية رائعة. كان يدوس الدراجة من دون تعب في الطريق الذي كان يقود إلى مالدونادو.

أما بالنسبة للوكاس، مسألة الدراجة كانت مجرد خرافة. حسب ما استطاع أن يعرف، براوليو كان قد أصبح أعرج نتيجة ضربة شرسة تلقاها في ملعب كرة قدم، ونتيجة ذلك لم يكن يبدو عليه أنه ملائم ليكون سائق دراجة.

لويس من جانبه، كان يقسم ويقسم الأيامين أن براوليو كان له دراجة، وأنه لم يكن أعرج ولا شيء من هذا القبيل، ويضيف أن هناك من يقولون إنهم رأوه يشارك في مسابقات رياضية ليسجل أرقاماً ممتازة.

أما في ما يتعلق بي، كانت لدي معلومات محدودة حول حياة ومعجزات براوليو المنيع.

لقد وصل الأمر بلوكاس وراميرو أن يحلما به، لكن صفات المحلوم به المزدوج لم تكن تتشابه. بالنسبة للوكاس، كان براوليو شخصاً طويلاً، أشقر، نحيل جداً. أما بالنسبة لروماريو، فكان أسمر قصيرا، ميالاً إلى امتلاك كرش.

كان لويس متحمساً للعثور عليه وجعله صديقنا.

لسوء الحظ، لم يكن حل اللغز ممتعاً.

ذات مساء ربيعي لويس وأنا، كنا قد قررنا أن نذهب إلى السينما، تقدمنا باتجاه وسط البلد. فجأة، في زاوية مظلمة استطعنا أن نتعرف على جسد جامد في منتصف الشارع. اقتربنا، وذهلنا عندما اكتشفنا أنه راميرو بعنقٍ نازف.

عند سماع أصواتنا الحزينة، فتح عينيه. فأنهلنا عليه بالأسئلة: «ما الذي حدث؟ من فعل بك هذا؟ راميرو، تكلم، رجاءاً». بالكاد حرك شفتيه، بالكاد استطاع أن يتمتم: «براوليو».

ولم يستطع أن يتلفظ بأكثر من هذا. كان قد مات.

نشيد الكراهية

كان هذا عنوان المسرحية للأمريكي الشمالي نورمان سوديرلاند، التي وصلت إلى بونيس ايريس مسبوقة بنجاح ساحق في الولايات المتحدة وأوروبا. هناك فقط شخصيتان، ديك وبوب، لهما علاقة تتطور في خمسة أجزاء. ليست فصولاً وإنما أجزاء، يوضح الكاتب ذلك دائماً، لا أدري لماذا!

البداية تتكلم عن صداقة حميمة، تعود إلى أيام الدراسة. على مدى الفصول، أو الأجزاء ـ في الحقيقة، سنوات ـ ستظهر أحداث، أو نزاعات بسيطة، أو مواجهات أيدولوجية، أو اختلافات سياسية، ستدعو إلى خلخلة العلاقة القديمة. يصل القسم الأخير إلى جو من العنف. في لحظة من الكراهية المتبادلة، يقتل ديك بوب، في الحقيقة يخنقه، ثوانٍ قبل أن يسدل الستار.

كانت النهاية مقنعة لدرجة أنه عندما كان الستار يعود ليرتفع ويحيي ديك وبوب الجمهور ممسكين يديهما، كان يصعب على الجمهور تقبل ذلك، بالرغم من أنه بعد دقيقة تنهمر التحيات التي تستمر وقتاً طويلا محرضة الممثلين على الخروج من جديد.

أيضاً في بونيس ايريس سلب العرض ألباب الجمهور والنقاد. أثنى

النقاد المسرحيين على الإخراج لميداردو اغيبري وأبرزوا تمثيل اسدروبال مونتيس، بوب ومانويل اسكالادا، ديك بالذات.

وفي ليلة اتمام العرض الخمسين وبعد التصفيقات، التي كانت هذه المرة بسبب العرض الخمسين، مشجعة أكثر من العادة، أخذ المخرج اسكالادا من ذراعه وطلب أن يكلمه على انفراد.

ـ ماذا هناك؟ سأل اغيبري عندما تنبه لسلوك الممثل الحاد.

ـ آه، لا شيء جدي. ببساطة، بدءاً من العرض القادم لن أكون ديك.

فوجئ اغيبري بالخبر وارتعد.

ـ لماذا؟ هل تريد زيادة؟ هل مللت من النص؟ هل مرضت والدتك؟

ـ لا. سأشرح لك. انظر إلى نقد المسرحية، كان إطراء، لقد تفهمنا أنا واسدروبال أدوارنا جيداً كبوب وديك!

ـ إنه صحيح تماماً.

ـ المشكلة أنني عشت الدور تماماً كديك.

في كل ليلة أشعر بحقد أشد تجاه دور بوب. افهمني جيداً: ليس تجاه اسدروبال، الذي هو صديقي، وإنما تجاه الشخصية التي يمثلها.

أن أخذ ديك على عاتقي هو شديد لدرجة، أنني أشعر كل ليلة أنني على وشك خنق بوب بشكل حقيقي، أي اسدروبال. من دون الذهاب بعيداً، تملكني هذا الشعور، الليلة بالذات. لقد أرخيت ضغط يداي كمخالب عندما انتبهت إلى القلق بادياً في نظرة اسدروبال.

ـ وما الذي تقترحه علي؟ ستكون مسؤولا عن إيقاف عرض في أوج نجاحه؟

ـ لا. لقد فكرت بهذا. بإمكاننا أن نأخذ هدنة لثلاثة أو أربعة أيام، نعود بعدها بتغيير مهم: أن يقوم اسدروبال بدور ديك وأنا بدور بوب. أعرض عليك هذا لأنني متأكد من أن اسدروبال لن يخنقني.

ـ حسناً قال اغييري بعد صمت. على الأقل سنكون في الخشبة لخمسين عرض آخر. هكذا نعم، اعتنِ بنفسك واعتنِ بعنقك. حسب ما أرى، ديك شخصية مهيمنة.

التعبير

كان ميلتون استومبا طفلاً معجزة. فقد كان يعزف في السابعة من عمره السوناتا رقم ٣، الفقرة الخامسة لبراهامس، وفي الحادية عشر، أشاد به النقاد بالإجماع، كما أشاد به الجمهور في سلسلة من الحفلات التي أقيمت في العواصم الكبرى في أمريكا وأوربا.

ومع ذلك، عندما أتم العشرين، لوحظ تحول مهم على عازف البيانو الشاب. لقد بدأ الاهتمام المفرط بتضخيم تعابير وجهه، من خلال تقطيب حاجبيه، ونشوة في عينيه، وتعابير أخرى محكمة. وكان يسمي كل هذا «تعبيره الخاص به».

تدريجياً أخذ استومبا يتخصص بالتعابير. كان لديه واحدة عندما يعزف «البابيتيكا» شفقة، أخرى «الطفلات في الحديقة» أخرى لـ «البولونيسا». كان قبل كل حفلة يتمرن أمام المرآة، وكان الجمهور الذي أدمن تلك التعابير بجنون يقابل تلك التعابير بتصفيقات حارة.

ظهرت البادرة المقلقة الأولى في حفلة سبت. لقد انتبه الجمهور إلى أن خطأ ما قد حدث، وظهرت دهشتهم في تصفيقاتهم. في الحقيقة لقد عزف استومبا «الكاتيدرال السوميرخيدا» الغارقة، بتعبير مقطع «الاستعراض التركي».

لكن الكارثة ظهرت بعد ستة أشهر، واعتبرها الأطباء فقدان ذاكرة جزئي.

أما الجزء هذا فكان يتعلق بالنوتات. ففي غضون أربع وعشرين ساعة نسي (ميلتون استومبا) وللأبد كل النوتات والأوبرات والسوناتات التي كان قد جمعها في عقله.

المدهش، والمدهش حقاً، أنه لم ينسَ أياً من تعابير وجهه الخاصة التي كانت ترافقه في عزفه.

لم يكن قادراً على عزف البيانو، لكن عزاءه كان، أن أصدقاءه الأكثر إخلاصاً ما يزالون يحضرون إلى منزله أمسيات السبت؛ لحضور عرض لتعبيراته البكماء. وكان رأيهم بالإجماع، أن تعبير تحفة «الكافولافورو» هو التعبير الأكثر روعة.

المنارة

كانت تلك المنارة تحب عملها، ليس فقط لأنه يسمح لها بمساعدة القوارب الشراعية واليخوت والقاطرات التي لا غنى لها عن ضوئها البسيط، إلى أن تختفي في منعطف ما عند الأفق، وإنما أيضاً لأنه كان يتركها تومض، بذكاء تقطعي، على أزواج يمارسون الحب في الملجأ المتواضع، هناك في موقف السيارات المحاذي للصخور.

تلك المنارة كانت متفائلة بطريقة جنونية، ولم تكن لتغير عملها السعيد بأي عمل آخر.

كانت تتخيل أن الليل لا يمكنه أن يكون ليلاً دون ضوئها، كانت تعتقد أنها النجمة الوحيدة في الأرض، لاسيما على سطح الماء، وحتى كانت تمني نفسها بأن تقطّع ضوئها الكلاسيكي كان المقابل لضحكة صحية وساذجة.

هكذا، إلى أن حانت مناسبة مشؤومة لتبقى دون ضوء.

اذهب لتعرف أي ظلم ميكانيكي ذاك. أن تتعطل الحركة الميكانيكية، وأن تترك الليل ليضع كل ظلامه تحت إمرة البحر المتغضن. ثم يزداد الأمر سوءاً عندما تطلق عاصفة ببرقها ورعدها.

لم تستطع المنارة الخلود إلى النوم. فالظلام الحاد كان دائماً يولّد لديها أرقاً، وشعوراً بالغثيان.

فقط عند الشروق أخذت المنارة الأخرى، المدعوة بالشمس، شيئاً فشيئاً بإضاءة الضفة والموجات، كانت منارة القصة قد ألمّت بالمأساة.

هناك فقط، على بعد أميال من برجها الرمادي، كانت تشاهد سفينة شراعية نصف رطبة. بالتأكيد فكرت في الناس، فيمن قد يغرقون لكن فكرت أكثر ما فكرت بالسفينة الشراعية، بما أنها كانت دائماً تشعر بارتباطها بالمراكب أكثر من ارتباطها البحارة. شعرت أن قلبها الشديد يعتصر ولن يستطيع المزيد. أغلقت عيناها كعملاق ذو عين واحدة من الأساطير اليونانية المتواضعة وبكت دمعتين أو ثلاثاً من حجر.

التاسع عشر

ـ الكابتن فارياس؟

ـ نعم.

ـ ألا تذكرني؟

ـ في الحقيقة لا.

ـ ألا يعني الرقم ١٩ شيئاً لك؟

ـ تسعة عشر؟

ـ السجين ١٩.

ـ حسناً.

ـ هل تذكر الآن؟

ـ لقد كانوا كُثُر.

ـ لكن أنت...

ـ إنني رسمياً ميت؟

ـ لم أقل هذا.

ـ لكنك تفكر فيه....

للعلم سأقول لك أنني لست شبحاً، كما بإمكانك أن ترى أنني حي.

ـ لا أفهم شيئاً.

ـ نعم. إنه أمر صعب، يبدو أنه من المستحيل أن تفهم أليس كذلك؟

لقد قمتم بعملكم على أكمل وجه، لكن الطيران هو الطيران والبحر هو البحر.

هناك عدة بحار في العالم، لكن يوجد في البحر عوالم عديدة.

ـ لا تأتني بترهات. هذا لا يمكن.

ـ بل يمكن.

ـ لماذا أتيت؟

ما الذي تريده؟

كان فارياس متكئاً وسط حديقته والرقم ١٩ واقف على بعد متر واحد منه.

ـ لا شيء بالتحديد، كنت فقط أريد أن تراني.

اعتقدت أنه لربما أزحت عنك عذاب الضمير، «قتيل واحد أقل».

ما رأيك؟

رغم أن عبء الآخرين سيبقى يضنيك لأنهم لن يعودوا إلى الحياة.

ـ هل ما تسعى إليه هو المال؟

ـ لا، ليس المال.

ـ ماذا إذن؟

ـ أن أتعرف إلى عائلتك ـ زوجتك مثلاً ـ التي هي من توكومان مثلي، وعلى أبنائك أيضاً.

ـ هذا غير ممكن.

ـ لم لا؟ لن أقص عليهم شيئاً.

ـ اسمع، لا ترغمني على أن أقوم بفعل عنيف لا يليق بنا.

ـ بي، لماذا؟

ليس هنالك ما هو أسوأ من إلقائي في البحر كما حصل معي.

ـ أقول لك لا ترغمني على فعل ذلك.

ـ لا أحد يرغمك. ذلك الذي فعلته قبل سنوات طويلة، هل حصل لأنك كنت مجبراً، أم لفرض النظام، أو بشكل تلقائي؟

ـ ليس علي أن أعطي تبريرات لك أو لغيرك.

ـ شخصياً لست بحاجة إليها.

لم يكن سبب فعلتك تلك غريباً، لم تمتلك الجرأة على الرفض.

ـ ما أسهل الحديث عن امتلاك جرأة الرفض بالنسبة لمن لا يخصه الأمر.

ـ حسناً حسناً... جملة جيدة، اعترف.

هدأ الآخر من روعه قليلاً فقد كان متوتراً.

ـ ألن تدعُني للدخول إلى منزلك الجميل؟ كما قلت لك، لن أقص عليهم قصتنا، وأنا عادة أفي بوعودي.

نظر إليه فارياس بريبة ما للمرة الأولى. لقد رأى شيئاً ما في عيني (التاسع عشر).

ـ حسناً، تعال.

ـ هذا جيد. لا يخفى علي أن سلوكك يتضمن شيئاً من الشجاعة.

وجد (التاسع عشر) نفسه سريعاً في صالون بسيط، مرتب بتواضع لكن بذوق سيئ.

نادى فارياس: «ألفيرا!» وظهرت ألفيرا. امرأة فيها شيء من الجاذبية، ما زالت شابة.

ـ «هذا الصديق... ـ قال فارياس متلعثماً ـ إنه ابن مدينتك».

ـ صحيح؟ ـ فرحت المرأة قليلاً ـ هل أنت من توكومان؟

ـ نعم يا سيدتي.

ـ أين تعرفتما على بعض؟

ـ حسناً ـ قال فارياس ـ ، لم نر بعضنا منذ زمن.

ـ نعم، سنوات طويلة. قال (تسعة عشر).

تكلما لبرهة كما لو أنهما التقيا بعد طول فراق. دخل الأطفال ووزع (التاسع عشر) القبل، وسألهم أسئلة تقليدية.

ـ هل أنت متزوج؟ سألت هي.

ـ أرمل.

ـ يا للسوء! آسفة.

ـ لقد توفت زوجتي منذ خمس سنوات.

ـ يا للسوء!

ـ بالقرب من الشاطئ.

عمّ صمت ساكن.

وجد فارياس مخرجاً.

ـ هيا أيها الأطفال! هيا لأداء الواجبات، لقد تأخر الوقت.

ـ وهل حضرتك تعيش لوحدك؟ سألت ألفيرا.

ـ نعم، بالطبع.

لم تسأله إذا ما كان لديه أطفالاً، خشية أن يكونوا قد ماتوا أيضاً!

بحركة آلية، فقط لفعل شيء ما، نفض (التاسع عشر) أسفل البنطال بيده.

ـ حسناً، لا أريد إزعاجكم، إضافة إلى أنني يجب أن أكون عند السابعة في ساحة إيطاليا.

عندما ضغط (التاسع عشر) يد ألفيرا، شعر بإحساس غريب، عندها اقتربت وقبلته في خده.

ـ أنا شديدة الأسف من أجل زوجتك.

ـ هيا! قال فارياس، وهو على وشك الانفجار.

ـ نعم، هيا ـ أكد (التاسع عشر) بهدوء.

رافقه صاحب المنزل إلى الباب، هناك نظر بتمعن إلى (التاسع عشر)، وفجأة! وبدون سابق إنذار، طفق بالبكاء. لقد كان بكاء لا يمكن إيقافه، لم يدر (التاسع عشر) ما عليه فعله، فهو لم يكن يتوقع طوفان الدموع هذا.

توقف البكاء فجأة بعنف، وقال فارياس، بحدة:

«إنك شبح! شبح! هذا هو!، ابتسم (التاسع عشر) متفهماً ومستعداً لتقديم اعترافات».

ـ بالتأكيد أيها الشاب، أنا شبح، لقد أقنعتني في النهاية. الآن نظف أنفك واذهب للبكاء على كتف زوجتك. لكن لا تقل لها أنني شبح، لأنها لن تصدقك.

سطو ليلي

السيدة فالينتنا بالما دي ابريو، ذات التسعة والأربعين عاماً، أرملة منذ ثمان سنوات، استيقظت فزعة في الثانية صباحاً.

بدا لها أن الصوت آت من غرفة الجلوس. ودون إنارة للضوء، وهي ما زالت في قميص النوم، تركت السرير ومشت بخطوات حذرة باتجاه الصالة الكبيرة للشقة الفاخرة. عندها أضاءت الضوء وعلى بعد ثلاثة أمتار، وقف شاب بحيرة، يرتدي بنطالاً من الجينز الأزرق ومعطفاً مفكوك الأزرار.

ـ مرحباً! قالت. ـ نظراً لقصر التحية، استطاعت أن لا تتلعثم ـ .

ـ عفواً جنابك... قال الدخيل.

لقد علمت أن جنابك في رحلة. ظننت أن ليس هناك أحد.

ـ حسناً. وما الداعي لهذه الزيارة؟

ـ إنها بقصد أخذ بعض الأشياء.

ـ كيف استطعت الدخول؟

ـ من المطبخ. لم أكن بحاجة لكسر القفل. فأنا ماهر إلى حد كبير في هذا الأمر.

ـ هل من الممكن أن أعرف إذا ما كنت تحمل سلاحاً؟

ـ لا... دائماً أتأكد من كل شيء قبل القيام بعملية ما. ولكن هذه المرة لم أستعلم جيداً، أعترف بذلك. دائماً عندما أقرر القيام بعملية ما أتأكد من عدم وجود أحد، ومادام الأمر كذلك فلماذا أحتاج إلى السلاح؟

ـ وما هي الأشياء التي تهمك؟ أعتقد أنه ليس من السهل في هذه الساعة حمل تلفزيون ٢٢ بوصة أو ميكرويف، أو مجموعة من تحف الخزف الثمينة.

ـ هل عندك كل هذا؟ تهانينا. لكنني في هذه الرحلات المسائية لا أكرس نفسي لأشياء صعبة النقل. أفضل الجواهر، الأموال النقدية ـ دولارات، إذا ما أمكن، أو حتى ماركات ـ بعض الأشياء القديمة الصغيرة نوعاً ما، بحيث تتسع في جيب معطف. أشياء كهذه، قيمة، ذات ذوق رفيع وخطر قليل ومن السهل بيعها.

ـ منذ متى وأنت تمتهن هذه المهنة المربحة ذات المستقبل الباهر؟

ـ منذ عامين وأربعة أشهر.

ـ يا للدقة.

ـ ما حصل، هو أنني قمت بعمليتي الأولى في اليوم التالي لعيد ميلادي الرابع والثلاثين.

ـ وما الذي دفعك لاختيار هذه الوجهة؟

ـ انظري يا سيدتي، أنا تقريباً مهندس...

في الحقيقة ما زال لدي ثلاث مواد والمشروع النهائي، لكنني كدت أموت من الجوع. ربما جنابك لا تعرفين أن العمل هنا محدود جداً، من

جهة أخرى، ليس لدي والدين ولا أعمام ليساعدوني في حياتي. ولا حتى عرّاب. كما يقولون في اسبانيا أنا أكثر وحدة من الواحدة. وكما ترين، منذ أن بدأت رحلاتي المسائية، على الأقل أستطيع العيش، حتى إنه أصبح بإمكاني أن أوفر. عندما يكون لدي ما يكفي، أعتقد أنني سأشتري سيارة أجرة، أعرف ذلك من اثنين آخرين مهندسين تقريباً، وواحد آخر أيضاً تقريباً مهندس، قرروا امتلاك سيارات أجرة وحالهم جيدة.

ـ وهل ستترك عندها هذه الأعمال المربحة؟

ـ لا أعتقد. سيكون عمل السيارة مكملاً فقط.

فهمت السيدة فالنتينا أرملة دي ابريو أن هذه اللحظة مناسبة للابتسام، فابتسمت.

ـ ما رأيك لو تركنا مسألة اختيار الأشياء التي ستأخذها هذه الليلة لوقت لاحق، ولنتناول جرعة الآن؟

ـ حسناً. أرى أنك تتقبلين بهدوء المواقف غير المنتظرة.

ـ ماذا تريد؟ أن أرتجف؟

ـ لا، على أي حال... هكذا أفضل بكثير.

اتجهت صاحبة المنزل إلى البار وتناولت كأسين.

ـ ما الويسكي الذي تفضله؟ أسكتلندي، إيرلندي أو أمريكي؟

ـ إيرلندي، بالطبع.

ـ أنا أيضاً.

ـ بثلج أو بدون؟

ما إن صبت الكمية ذاتها في الكأسين الطويلين المصنوعين من الزجاج الفيروزي ـ ربما البوهيمي ـ حتى رفع الدخيل كأسه.

ـ لنشرب النخب يا سيدتي.

ـ في صحة ماذا أو من؟

ـ في نخب تفهم البورجوازية الوطنية.

ـ هنيئاً! وأيضاً من أجل الإخفاقات المعمارية.

عندما وصلا إلى الكأس الثاني، رمقت السيدة فالنتينا الرجل بنظرة فيها شيء من الحذر والإثارة، ثم فكرت أنها اللحظة المناسبة لاسترجاع ابتسامتها، فاسترجعتها.

ـ الآن قل لي ألا تفكر بإضافة قميص نومي إلى غنيمتك هذه الليلة؟

ـ قميص نومك؟

ـ نعم. أعلمك أنه لا شيء تحته، ولك الصلاحية أن تنزعه عني.

ـ لكن.

ـ ربما هو جسد هرم بالنسبة لك؟

ـ لا يا سيدتي، أعترف لك أن جنابك تبدين على أفضل ما يرام.

ـ تريد القول: على أفضل ما يرام بالنسبة لسنوات عمري؟

ـ على أفضل ما يرام، ببساطة.

ـ أصبحت أرملة منذ ثمان سنوات، ومنذ ذلك الوقت لم أنم مع أحد. ما رأيك بهذا الامتناع أيها اللص الظريف؟

ـ سيدتي، لست بحاجة لأقول لك أنني تحت إمرتك.

ـ أرجوك، لا تقل لي سيدتي، وخاطبني بلا ألقاب.

ـ هل أنزع عنك قميص النوم؟

أمام سلوك موافقة المرأة، وقبل أن يتوجه إلى قميص النوم، نزع الرجل الطيب المعطف، البنطال، وباقي ملابسه المتواضعة، لكن النظيفة. عند هذه النقطة، قررت أن لا تنتظر مبادرته وانتظرته عارية.

في السرير المزدوج، أثبت اللص أنه لم يكن خبيراً في السرقات الليلية فقط، وإنما أيضاً في أعمال ليلية أخرى. من جانبها، السيدة فالنتينا، بالرغم من صيامها الطويل كأرملة، أثبتت في الوقت نفسه أنها لم تفقد ذاكرتها الأيروتيكية.

كما في الويسكي، كررا النخب في الجنس أيضاً. في النهاية، قبلته هي بلباقة، وجاء الإعلان على الفور:

ـ الآن لنذهب إلى الهدف، ألا تعتقد أن عليك الذهاب قبل أن تشرق الشمس؟ لأسباب طبيعية، هناك حراس وبائعون، الخ. هيا، ارتد ملابسك وبعدها سنرى ما يمكنك أن تأخذ من الأشياء.

وبينما كان يرتدي ملابسه، وبالرغم من عرضها السابق، عادت لترتدي قميص النوم.

ثم فتحت بعد ذلك أبواب خزانة كان بداخلها صندوق. أخرجت منه رزماً من الدولارات وأشياء أخرى قيمة.

ـ كيف الحال؟ هل هناك شيء ترغب في أخذه؟

وضعت فوق طاولة من الخشب الفاخر جواهر من الذهب، ساعة سويسرية روليكس لماعة أيضاً ـ لقد كانت لزوجي، وأشياء قيمة أخرى.

ـ هناك أيضاً هذا المسدس الأثري، يقال إنه ينتمي لضابط نازي، هل يهمك؟

عندما كان الرجل يتفحص المجوهرات، ضغطت على الزناد. فأصابت الطلقة الرجل في رأسه. سقط إلى جانب السرير. جمعت كل الأشياء المعروضة وأعادتها جميعها إلى الصندوق باستثناء المسدس.

بعد أن تأكدت من أن الرجل قد مات، مرت بحذر فوق الجثة. وضعت للحظة المسدس في يده اليمنى، لمجرد ترك بصماته عليه، ثم أخذته ووضعته فوق السرير، ثم ذهبت إلى الحمام، غسلت وجهها ويديها مرات عدة، ثم ذهبت إلى غرفة الجلوس، أعادت الزجاجة إلى مكانها، حملت الكأسين الزجاجيين الفيروزيين الطويلين إلى المطبخ وغسلتهما، جففتهما وأعادتهما إلى مكانهما في غرفة الجلوس. ثم رفعت سماعة الهاتف وطلبت الرقم.

ـ الشرطة؟ السيدة فالنتينا بالما تتكلم، أرملة دي ابريو)، القاطنة في (أفنيدا تال)، رقم كذا وكذا، شقة ثمانية (ب). أطلب منكم الحضور إلى هنا رجاء بسرعة. لص دخل، لا أدري كيف ومن أين دخل إلى منزلي للسرقة، ليس هذا فقط بل حاول اغتصابي، كان يهددني بمسدس بشكل دائم، لكنني وفجأة لا أدري من أين امتلكت الشجاعة نتيجة لثقته الكبيرة ـ أخذت السلاح منه وأطلقت النار عليه بدون تردد. لدي شعور أنني أرديته قتيلاً، دفاعاً عن النفس طبعاً. تعالوا بسرعة، لأن الموقف مرعب لدرجة فظيعة وأنا على وشك أن يغمى علي.

حلم أنه كان سجيناً

حلم ذلك السجين أنه كان سجيناً. مع وجود فوارق دقيقة واختلافات بطبيعة الحال، الجدار مثلاً، في الحلم كان يوجد ملصق لباريس. أما الجدار الحقيقي فكان فيه بقعة مظلمة من الرطوبة فقط. في أرض الحلم كان هناك سحلية تجري، استبدلت بفأر ينظر إليه في الأرض الحقيقية.

حلم السجين أنه كان سجيناً. كان ثمة من يدلك ظهره. وقد بدأ يشعر أنه أفضل حالاً. لم يكن يستطيع أن يرى من هو، لكنه كان متأكداً أنها أمه، لقد كانت خبيرة في هذا. دخلت الشمس الصباحية من النافذة الواسعة وكان يستقبلها وكأنها علامة حرية. عندما فتح عينيه، لم يكن هناك شمس. النافذة الصغيرة بقضبانها ـ ثلاثة أشبار في شبر ـ تعكس ظلاً على جدار آخر.

حلم السجين أنه كان سجيناً، وكان يشعر بالعطش وشرب كمية كبيرة من الماء البارد فتدفق الماء على الفور من عينيه دموعاً. كان واعياً لسبب بكائه، لكنه لم يعترف بذلك ولا حتى لنفسه. نظر إلى اليدين الكسولتين، اللتين كانتا تبنيان تماثيل، ووجوه من الجبس، وأرجل، وأجساد، ونساء من المرمر. عندما استيقظ، كانت عيناه جافتين، واليدان متسختان، والمفاصل ملتهبة، والنبض يعدو، والرئتان بلا هواء، والسقف يدلف.

عند هذه النقطة، قرر السجين أنه من الأفضل له أن يحلم أنه سجين. اغمض عينيه ورأى نفسه في صورة مع (ميلاغروس) بين يديه. لكنه لم يكن مكتفياً بالصورة. كان يريد حضور (ميلاغروس)، وظهرت هي، بابتسامة عريضة وبقميص نوم سماوي. اقترب حتى ينزعه عنها، ونزعه. كان عري (ميلاغروس) بالطبع معجزة وأخذ يطوفه بكل ذاكرته، بكل استمتاعه. لم يكن يريد أن يستيقظ، لكنه استيقظ، ثوانٍ قبل الذروة في الحلم. ولم يكن هناك أحد. لا صورة، ولا (ميلاغروس)، ولا قميص النوم السماوي. تقبّل أنه يمكن للوحدة أن تكون غير محتملة.

حلم السجين أنه كان سجيناً. كانت أمه قد توقفت عن تدليكه، فهي كانت قد ماتت منذ سنوات. وبالنسبة له فقد غزاه الحنين لنظراتها، غنائها، حضنها، لمساتها، تأنيبها له، وغفرانها...

حضن نفسه، ولكن هذا لم يكن أمراً مفيداً. كانت تبدو(ميلاغروس) من بعيد جداً. كان يبدو أنها تودعه من مقبرة! لكن هذا لا يمكن! من حديقة! لكن لا يوجد في الزنزانة حديقة، على أي حال، إنه داخل الحلم، كان واعياً أنه كان كذلك: حلم. رفع ذراعه حتى يستطيع هو أيضاً أن يلقي بإشارة وداع. لكن يده كانت مجرد قبضة، وكما هو معروف فالقبضات لا تستطيع أن تقول وداعاً.

عندما فتح عينيه، كان الفراش غير المريح ينقل له برداً وقحاً، مرتجفاً، مخدراً، حاول أن يدفئ يديه بنفسه. كان لا يستطيع التنفس. هناك في الزاوية، كان ما زال الفأر المتجمد مثله ينظر إليه. حرك هو يداً والفأر تقدم خطوة. كانا معرفة قديمة. كان أحيانا يلقي له بكسرة من الوجبة البائسة والفظيعة. وكان الفأر ممتنا.

هكذا، اشتاق السجين للسحلية الخضراء خفيفة الحركة صاحبة أحلامه ونام ليسترجعها. فوجدها بلا ذنب. حلم كهذا لم يعد يستحق أن يحلم به. ومع ذلك أخذ بعدً السنوات الباقية، سنة، اثنتان، ثلاثة، أربعة واستيقظ، في النهاية كانوا ستة، وكان قد أكمل ثلاثة. عدّها مجدداً، لكن هذه المرة بأصابع مستيقظة.

لم يكن لديه مذياع، ولا ساعة، ولا كتب، ولا قلم، ولا دفتر. كان يغني أحياناً بصوت منخفض لملء فراغه بشكل مؤقت. لكنه كان في كل مرة يتذكر عدداً أقل من الأغاني. عندما كان طفلاً أيضاً كان قد تعلم بعض الصلوات التي علمتها له جدته، لكن الآن، لمن سيصلي؟ كان يشعر أنه مخدوع من الإله، لكنه لم يكن يريد أن يخدع الإله أيضاً.

حلم السجين أنه كان سجيناً وأن الإله حضر واعترف له أنه كان يشعر بالتعب، لقد أنهكه الأرق وحتى عندما كان يتمكن من النوم كانت تطارده الكوابيس حيث كان يسوع يطلب المساعدة على الصليب، لكنه كان مصراً على عدم مساعدته.

أسوأ شيء كان الإله يقوله: «أنا ليس لدي إله، على من أعتمد؟ إنني مثل اليتيم بجدارة». شعر السجين بالأسف لهذا الإله الوحيد. فهم - على أي حال - أن مرض الإله كان الوحدة، رغم أن شهرته بالخلود الدائم كانت تخيف القديسين.

عندما استيقظ وتذكر أنه ملحد، انتهى أسفه تجاه الإله، بل شعر بالأسف تجاه نفسه، فها هو سجين هنا، وحيد، مغمور بالقذارة والسأم.

بعد أحلام وسهرات غير معدودة، جاء ذات مساء حيث كان نائماً أوقظ من دون الفظاظة الاعتيادية، وطلب منه الحارس أن ينهض لأنه

سيطلق سراحه. اقتنع السجين أنه لم يكن يحلم عندما شعر ببرودة الفراش، وتأكد من الحضور الكامل للفأر. حيّاه بحزن ثم ذهب مع الحارس لاستلام ملابسه، وبعض المال، والساعة، وقلم، ومحفظة جلدية، والقليل الذي نزعوه منه عندما اعتقل.

لم يكن هناك أحد بانتظاره عند الخروج، بدأ المسير وتابعه لنحو يومين، ونام على حافة الطريق أو بين الأشجار. تناول شطيرتين في حانة في ضاحية وتناول جعة تعرّف فيها إلى طعم قديم. وعندما وصل أخيراً إلى منزل أخته، كانت على وشك أن يغمى عليها من المفاجأة. استمر عناقهما لعشر دقائق. سألته بعد توقفها عن البكاء: «ماذا تفكر أن تفعل؟».

ـ حتى الآن، الاستحمام والنوم، أنا فعلياً متوتر ومنهك.

قادته بعد الحمام إلى السقيفة العلوية، حيث كان هناك سرير حقيقي وليس فراشاً نجساً، سرير نظيف ومريح. نام لأكثر من اثنتي عشرة ساعة متواصلة. ولفضوله حتى أثناء هذه الراحة الطويلة، حلم السجين السابق أنه كان سجيناً، وحلم بسحلية.

لا ظل في المرآة

(ريناتو فالينزويلا)...

ليست هذه المرة الأولى التي أكتب فيها اسمي، وأراه كما لو أنه لشخص آخر، لشخص بعيد فقدت التواصل معه منذ زمن. في مناسبات أخرى، وعندما كنت أنتهي من حلاقة ذقني أمام المرآة، كنت أرى وجهاً بالكاد أعرفه، كما لو أنه مسودة كاريكاتير لوجه آخر اعتدته رغماً عني.

عندها أفكر... إن هذه النظرة ليست لي، وهذه الحدقات الحاقدة لا تعود إلي، وهذه التجاعيد تنتمي لقناع آخر، وخلجان الصلع لا تتطابق مع جغرافية شعري. صحيح أن هذه الفروقات عادة ما تكون مؤقتة، لكنها تتركني دائماً متقلب المزاج ومغلوباً على أمري. من أجل هذا، يا ريناتو فالينزويلا، ربما قد حانت اللحظة لنسوي حساباتنا مع الزمن، مع الماضي، والجراحات، مع الوعود، معك / معي جميعنا.

علينا أن لا نقع في الابتذال الذي يجعلنا في كل شائنة نلقي باللوم على الطفولة المنسية. لقد بقيت هناك، خلف الضباب. ذكرياتي ترى من خلال زجاج زمردي يدعى ذاكرة.

أراك عارياً في الحقل، تحت مطر غزير، الأيدي النحيلة في

الأعلى، مستمتعة بهذه السعادة الافتتاحية، التي بالمناسبة ـ لن تتكرر، على الأقل بهذه الحدة.

أراك طفلاً، مذهولاً أمام الاستعراض الغريب للاحتكاك ـ أنت اعتقدت أنه كان يلعب ـ مع نعجة، سلبية وخاملة، وبطبيعة الحال غائبة عن ذلك الانتهاك غير المشروع. مراهقتك كانت حلم، كنت تحلم بدون توقف وعندما كنت أنا أستيقظ كنت أنت ما تزال تحلم بغابات، وأمواج، وصدور، وشموس، وجوع، وأيدي، وأفخاذ. أحلامك كانت برغبة وسهري كان برقابة. عادة ما يظهر مدعٍ عارف، قادر على أن يؤكد أن المرآة صادقة دائماً. اللعنة على هكذا صدق. المرآة هي مزيفة، خائنة، مكارة. هذا الريناتو فالينزويلا الذي يظهر هناك، ناظراً إلي بمكر، باهتاً من شدة الأرق، هو تقليد هش لي أنا نفسي، صورة طبق الأصل من دون دم، مجرد شيء. أين هي مثلاً، نبضات صدغي، القلب الطافح بالإنجازات والإخفاقات، اليدان اللتان ليستا مخالب وإنما مانحة لمسات؟

ختم المرآة هو ما لم أكن أريد أن أكونه: دمية مستهلكة تستدعي الموت.

عبر هاتين العينين الزائفتين تتراءى أنقاض من الرغبة لم ولن يعد باستطاعتي أن ألمحها أو أتذكرها. هذا الريناتو فالينزويلا هو خاتمة للريناتو فالينزويلو الذي أكونه أنا. أم لا؟ أو لربما يكون هذا الأنا المكون من لحم ودم النسخة المسكينة من الذي يتحرك في هذا الزجاج؟ قال الشاعر: «البحر مثل زجاج فسيح زئبقي / يعكس صفيحة سماء من الزنك». هذا الريناتو من زجاج رجراج، هل يعكس اللاشيء

من سمائي الرمادية؟ أو ربما يكون أقرب لما يقوله هذا البيت الشعري التالي: «الشمس كزجاج داثري وقاتم / كخطوة مريض يسير إلى الفلك»؟

أين هو، في هذه النسخة الدنيئة، التي هي المرآة، ذاك ابن العشرين الذي أغوى (إيريني)، أم المغوي من (إيريني)؟، الذي ارتعش مثل القضيب حيث ربطته بذراعيها الأحجية. أين أصبح ذلك الذي قبل وقبل ذلك الجسد الفائق الوصف، الذي غرق بسذاجة فيه، سعيداً من دون أن يأخذه على عاتقه، طائراً في الحب؟

ليس هناك ظل في المرآة. الظل للأجساد، وليس للصور. ابني (براوليو) له ست سنوات من الظل. لا أضعه أبداً أمام المرآة، حتى لا يفقده. (إيريني) بالمقابل، لم يعد لديها صورة أو ظل، لقد أخذها الرعب. هناك نهايات من السلام، من الألم، من القصور، من الرعب أيضاً. مع ذلك، فموتها غير موجود في عيني المرآة. بينما هو موجود في عيني، إنه لمن المستحيل إخلاؤها، إغفالها أو تضليلها.

ابني لا ينظر بعيون (إيريني). نهر من الحزن يجري في عروقي، لكني نسيت البكاء بعيني وعيني المرآة. لا أضع (براوليو) أمام المرآة حتى لا يستهلك، حتى لا يبدأ ـ وهو الذي ما زال صغيراً ـ بالهرم، حتى يظل ينظر بعيون (إيريني).

أوضح أن كل هذا هو من ماضٍ قريب، لكن مضى. أعترف أنني فوجئت اليوم، كما كل صباح أواجه فيه المرآة وأكلمه. كلمته وكلمته، أعتقد أنني صرخت فيه. فجأة انتبهت أن فم المرآة كان ما يزال مقفلاً.

عدت للكلام، شتمته... ولا شيء، لم تتحرك شفاهه، ولفضوله، كانت نظرته متراجعة القهقرى.

شعرت حينها أن سروراً غريباً يغمرني، لمسة من السعادة.

ولم أنطق فهي المرة الأولى التي أدعه فيها أبكماً. كنت قد هزمته للمرة الأولى بشكل غير قابل للاستئناف.

نهاية الأسبوع

انتظر والده عند باب المدرسة، كما كل أيام الجمعة بعد طلاق والديه. يعيش فيرناندو مع أمه، لكنه يقضي عطلة نهاية الأسبوع مع والده، من دون أي شروط فقد توصل الوالدان إلى حلول ودية، كي لا يخدشا مشاعر ابنهما بمواجهات سخيفة.

لم يسبق له أن وصل في وقته أبداً، لكنه هذه المرة تأخر أكثر من المعتاد. لم يقلق فيرناندو بينما كان ينتظر مع صبيين آخرين، لكن الأولاد أخذوا يغادرون شيئاً فشيئاً، وفي النهاية بقي لوحده مع الحارس الذي كان يكره الطلاب.

ظهر مارثيلو أخيراً شبه راكض. خضع لقبلة الخد الأبوية والمتعرقة، هذا لم يكن يعجبه؛ لأن فمه كان يظل رطباً وكانوا قد علموه أنه ليس مناسباً أن يمسح فمه بمرفقه.

ـ هل أنت عصبي؟

ـ لا.

ـ رجاءً، لا تخبر أمك عن هذا التأخير، أقصد: حتى لا تقلق. في الحقيقة لم أستطع أن أتخلص من زبون ثقيل الدم. لا تخبر أمك.

لم يفهم فيرناندو لماذا لم يكن يقول: لا تخبر لويسا.

أخذا سيارة أجرة إلى المطعم الذي اعتادا ارتياده دائماً. لم يكن فيرناندو يحتاج لقراءة القائمة. كان مخلصاً دائماً لطبق اللحم مع السلطة.

ـ ألا تريد أن تطلب شيئاً آخر؟

ـ لا.

ـ أنا كنت سأشعر بالملل من طلب الشيء نفسه دائماً.

ـ أنا أحبه. لذلك لا أشعر بالملل.

تابع مارثيلو واجبه الأبوي بالسؤال عن دروس ابنه، أساتذته، أصدقائه. وكما كانت الأسئلة ذاتها في كل مرة، لجأ فيرناندو إلى الإجابات المعتادة ذاتها.

ـ وما هو أكثر شيء تحبه من كل ما تتعلمه؟

ـ القراءة والحساب. (cuentas y cuentos)

كمرافقة لمزاح بداثي جداً، رسم فيرناندو ابتسامته الأولى في تلك الجمعة، ولم يكن للأب سوى الضحك.

ولم يكن هناك تجديد في الحلويات: بوظة مع الفانيلا.

ـ وكيف حال والدتك؟

ـ وحيدة. إنها لوحدها.

ـ حسناً، ليست وحيدة تماماً. إنها معك، أليس كذلك؟

ـ بلى، بالطبع.

وصلا إلى الشقة اللطيفة حول منطقة الرامبلة وذهب فيرناندو إلى غرفته. كان مارثيلو قد جهز له مكاناً خاصاً به، حيث كانت هناك إضافة إلى السرير وقطع أثاث أخرى ألعاب للتسلية، وتلفاز صغير أيضاً. في

منزل والدته كان له عالمه الخاص، طبعاً بألعاب أخرى. كان فيرناندو يحب هذا التناوب لتسليته. كان كما لو أنه يقفز من مقاطعة إلى أخرى، والعكس صحيح.

كان لبرهة يلعب مع (قطع الميكانو)، التي لو أنه رآها بتمعن، لعرف أن بإمكانها أن تبدو طاحونةً، شاهد في التلفاز وثائقياً حول السناجب، نام لبرهة، وهكذا حتى ناداه والده من الشرفة.

كان ينتظره هناك أمر جديد: شابة، طويلة، شقراء وبشعر أملس، ترتدي بنطالاً، حيث بدت لفيرناندو جميلة ولطيفة.

ـ فيرناندو، قال الأب.

ـ هذه اينيس، صديقة حميمة لي، وستكون أيضاً صديقة جيدة لك.

قالت الصديقة الجيدة: مرحباً!، لكنه أخذها من ذراعها وقربها من كرسيه الهزاز، قبلها بحنان وانتبه فيرناندو بشغف إلى أن تلك الخد لم تكن رطبة. بدا له جيداً أن اينيس لم تحقق معه حول المدرسة، الدروس، المدرسات والطلاب الآخرين. بل تحدثت معه عن الأفلام، وعن كرة القدم، وفي أثناء الحديث أخبرته أنها كانت من أتباع فريق (الناشيونال) مثله تماماً. لقد كانت بداية حسنة.

مارثيلو، كان من أتباع فريق (البينارول)، لكنه كان مسروراً بحضوره تلك البداية، كما الكاتب السري لرواية محبوكة.

كانت اينيس قد أحضرت بعض الأطعمة المعلبة، فتناولوا طعام العشاء في البيت. ثم شاهدوا التلفاز لبعض الوقت: (أخبار عن مجاعات، طوفانات واعتداءات)، لكن بدأ النعاس يداعب أجفان فيرناندو، فنصحه مارثيلو أن يذهب إلى السرير بعد أن ينظف أسنانه.

وفي منتصف الليل أيقظه ضجيج آتٍ من الحمام. ثمّة من شدّ السيفون. بما أن باب غرفته كان مطبقاً، استطاع فيرناندو أن يتلصص من هناك. اينيس في قميص نوم!، خرجت من الحمام ودخلت في غرفة مارثيلو.

عاد فيرناندو إلى سريره مصطحباً معه شعوراً بالأرق رافقه بعض الوقت. لقد كانت اينيس جميلة ولطيفة إضافة إلى أنها من (الناشيونال). وقبل أن ينام، قرر فيرناندو أن يعزز من ولائه للويسا. لم تكن كرة القدم تعنيها، ولكن بالرغم من ذلك بدت له أكثر جمالاً وأكثر لطفاً.

السبت والأحد، استمتع كل من فيرناندو ووالده مع الآخر. لم تكن اللحظة مناسبة لفهم توازن الوضع، كما لو كان قد ختم السيناريو لفيلم، لم تتكلم اينيس عن كرة القدم أكثر. كانت صامتة تماماً، لدرجة أن مارثيلو اقترب منها مساء الأحد، داعب شعرها الجميل وسألها إذا ما كان ثمّة شيء.

ـ لا شيء مهم. قالت اينيس.

ـ فقط علي أن أعتاد. قالتها بهمس، حتى يسمع مارثيلو فقط، لكن فيرناندو سمعها ـ كانت الجدة تقول دائماً: «هذا الصبي سمعه قوي واستنتج أنه هو أيضاً عليه أن يعتاد. هل سيعتاد؟»

مساء الأحد، أعاد مارثيلو الصبي إلى عالمه الأمومي. نادى من الأسفل وعندها سمع صوتاً مشابهاً لصوت امرأته السابقة، قال: «لويسا، أترك لك فيرناندو، وداعاً».

ـ «شكراً، وداعاً»، قال جهاز الأنترفون بصوت أكثر بحة من المعتاد.

صعد فيرناندو في المصعد إلى الطابق السادس. كان هناك قالب من الحلوى، لكن لم يعنِه هذا.

بعد برهة، أعدت له عصير البرتقال. فجأة راقبت فيرناندو بفضول. كان يبدو لها شيئاً مستحيلاً، لكنه بدا لها أن ابنها نوعاً ما كان قد نضج في ٤٨ ساعة فقط.

أرادت لويسا أن تقول أي شيء فسألته:

ـ وكيف حال أبيك؟

فكر فيرناندو: هي أيضاً لا تقول «مارثيلو» وإنما «أبيك». ابتلع لعابه قبل أن يجيب:

ـ وحيد... إنه لوحده.

اضطهاد

كما في الكثير... الكثير من الكوابيس، بدأ يهرب، مذعوراً. كان صوت بساطير الملاحقين يُسمع ويزداد فوق الأوراق اليابسة. اقتربت الخطوات الوحشية بإيقاع مجنون وأحمق.

حتى وقت قريب، كان دائماً عندما يدخل في كابوس، كان خلاصه أن يستيقظ، ولكن عند هذا الحد كان المطاردون قد تعلموا هذه الحيلة، وفقد عنصر المفاجأة.

مع ذلك، عاد هذه المرة ليفاجئهم من جديد. ففي اللحظة التي ظن فيها المقتفون أثره أنه على وشك أن يستيقظ، كان بكل بساطة، يحلم أنه ما زال نائماً.

غرام

أتم أوسفالدو ثلاث سنوات حديثاً، وفي الليلة التي وضعوه فيها للمرة الأولى أمام التلفاز (كانوا يعرضون دراما بريطانية ذات أصداء عميقة)، بقي مخدراً، وفاغراً فاه على ملئه، وعيناه متسعتان من شدة الدهشة.

عندما رأته الأم هادئاً أمام الصور، ذهبت بهدوء إلى المطبخ. كانت تغسل الأطباق والأواني، كانت قد نسيت الطفل. ولكنها تذكرته بعد ساعات، واعتقدت: «أنه لا بد قد نام». جففت يديها وذهبت إلى غرفة الجلوس لتراه.

كانت الشاشة فارغة، لكن أوسفالدو كان ما زال على الوضعية نفسها والنظرة المذهولة نفسها.

ـ «هيا. إلى النوم». مهددة الأم.

ـ «لا»، قال أوسفالدو بشكل قاطع.

ـ «آه، لا. هل يمكن معرفة السبب؟».

ـ «أنا أنتظر».

ـ «من؟».

ـ «لها». وأشار إلى التلفاز.

ـ «آه. من هي؟».

ـ «هي».

وعاد أوسفالدو ليشير إلى الشاشة. ثم ابتسم، ساذجاً، متأملاً، مبتهجاً.

ـ «لقد قالت لي: حبيبي».

ما عدا استثناءات

سرى هواء بارد في القاعة الغاصة بالحاضرين، عندما قطع «دون لوثيانو» محاضرته ليسترد أنفاسه، وقال بكل ما لديه من هيبة وقدرة على الحكم النزيه: «أريد أن أكون صريحاً معكم مثلما تعودت دائماً: في هذه البلاد، مع بعض الاستثناءات، يتحكم بمهنتي أشخاص انتهازيون وتافهون وحمقى ومرتشون».

وفي صباح اليوم التالي، اتصلت به سكرتيرته هاتفيا في الساعة الثامنة: «دون لوثيانو، آسفة على إزعاجك في مثل هذا الوقت المبكر، ولكني أعلمت للتو أنه يوجد حوالي خمسمائة شخص ينتظرونك أمام منزلك».

ـ آه، صحيح؟، قال البروفيسور بحسن نية، وماذا يريدون؟

ـ حسبما يقولون، يريدون ابلاغك سلامهم وعبارات ودهم.

ـ لكن، من يكونون؟

ـ «لا أدري بالضبط سيد (لوثيانو). إنهم يقولون إنهم الاستثنائيون»!

سيرة ذاتية

كان قد أخبره الناشر الميلاني ان لا يحضر المزيد من الروايات. سيرة ذاتية، هذا هو. عليك أن تقنع نفسك أيها الشاب، لقد بدأ عصر السير الذاتية. هذا سيكون الصنف الغالب في القرن الواحد والعشرين، فالحق بالسرب.

وعد دانتي فالكوني بأنه سيحاول، رغم انه قد أوضح أن حياته لم تكن مهمة ولا فيها مغامرة ولا فضائحية. أي حياة بإمكانها أن تكون مهمة أو مغامرة أو فضائحية، قال الناشر الميلاني بابتسامة مليئة بالمستقبل، يضع الكاتب لمساته عندما يهم بالكتابة. تعال لنرى، الم تقتل قطة أو مارست العادة السرية أو أسئت ذات مرة لامك أو كان لك اتجاهات شاذة جنسيا أو أنك اكتشفت بأن أبيك كان له عشيقة أو قمت بالغش في فحص أو صفعت خطيبتك أو كنت سجينا أو عُذبت أو عَذبت أو وقعت شيكاً بدون رصيد أو ربحت مبلغا كبيراً في الكازينو أو خسرت مبلغا كبيراً في الكازينو أو استعملت بالخطأ ذات مرة غراء بدلا من معجون الاسنان أو كنت على وشك الاختناق أو تعلمت لغة غريبة؟ خبير من يقول لك هذا: بأي من هذه الأشياء الصغيرة بإمكانك أن تكتب سيرة ذاتية من الطراز الاول. نعم، افهم، لكن انا... لا تقل لي أن حياتك كانت مملة كثيراً لدرجة أنك لا تستطيع كتابة أي فصل ممتع.

ولا حتى من الضرورة أن يكون فضائحي، فمجرد أن يكون مثيرا فهذا يكفي. لا، لكن انا... لا شيء من لكن انا.... غدا تماماً تجلس لتكتب ذكرياتك المثيرة للقشعريرة، حقيقة أو متخيلة، وأعدك بانك في المعرض القادم للكتاب في ميلانو ستكون بيست سيللر.

بعد ذلك الحديث الحاد حضرت أيام من الكآبة للكاتب القروي المسكين.

ساعات من الرعب والاحباط امام الورقة البيضاء. كان الناشر الميلاني قد اشار: أن الأساس هو أن يتقدم، يجب البدء بجملة حيث تبدأ بشد القارئ البريء، شيء يعده بالخصوصية والمشاعر. دانتي فالكوني يتوجه: بعد العديد من السنوات فالتواضع منعني من الكتابة عن نفسي. على الفور بدا له ذلك كريهاً. يشطب تواضع ويضع غرور: خلال سنوات طويلة منعني الغرور من الكتابة حول نفسي. مزق الورقة بعد يومين ويكتب، الآن نعم بشيء من الأمل: العودة للماضي أيضا هو عودة للجذور. ياه، هذا يفتقد للدعابة، وكان الناشر الميلاني قد نصحه أن يسخر من نفسه كشكل من اشكال السيرة الذاتية. فكتب اذن: في الحقيقة لا اعرف إذا ما علي أن الجأ في البحث عن جذوري أو الذهاب ببساطة ما بين الفروع. يفرك رأسه. يفكر: أنا لست شجرة ولا اريد أن اكون كذلك. أيضاً الورقة الجديدة ستذهب إلى سلة المهملات. من المؤسف أن يكون شابلين قد بدأ مذكراته بطريقة مثل: ولدت في السادس عشر من ابريل عام ١٨٨٩، في الثامنة مساءا، في ايست لين، وولوورث. شيء آلي يمنعه الان من بدء كتابته بشيء مشابه: ولدت في الثاني والعشرين من اب في عام ١٩٤٩، في العاشرة صباحا، في

فوليغنو، اومبريا. من المؤسف لا سيما أن الياس كانيتي بدأ خطابه «اللسان المسامح» بهذا الشكل اليساري تماماً كما هو آسر: ذكرياتي الأبعد ملطخة بالأحمر. هو بالمقابل لن يستطع ربط ذكرياته الأولى بالأحمر. ولا مع أي لون اخر. ولا حتى رمادي. ربما البدء هكذا: حلمي الاول كان... لا شيء. في الحقيقة هو لا يحلم أبداً وبالتالي لم يكن هناك حلم أول. لو لم يبدأ نابوكوف على الاقل لم يكن بدأ كلامه، ذاكرة بهذا البريق: المهد، يهتز فوق الهاوية... أنها حالة خاصة، فكر، المهد، إثر الاهتزازات الأولى، لكان تعجل ببساطة على الهاوية وهكذا لما كان هنالك مشاكل اوتوبيوغرافية. مع ذلك، اشتعل في عقله المرتعد فجأة ضوء، وليس شاحبا تحديدا. بدا له انه وجد كيف يقلع، بشكل مدهش بالإضافة إلى انه يفيد على اثارة حيرة الناشر الميلاني المستبد، المتباهي، الانتهازي. يضع ورقة جديدة في ماكينة الاوليفيتي ويكتب بتصميم، براءة وشجاعة: في منتصف طريق حياتنا. ينظر كمخدر إلى ذلك السطر، ثم يقف راجلا ويذهب باتجاه الحمام. يواجه دانتي فالكوني المرآة ويقول لنفسه، عاجزا وغاضبا: نهائيا، انا لست ذاك الدانتي، انا لست ذاك الدانتي ذي الروح. وهناك يشعر بأنه وضع اصبعه على الهدف. الان هو متأكد بأن بدايته ستعجب الناشر الميلاني. يعود إلى الطاولة، يغير الورقة في ماكينة الاوليفيتي ويكتب، هذه المرة بثقة كاملة بنفسه: انا لست ذلك الدانتي ذو الروح، انا بالكاد دانتي حقير.

أربعة في زنزانة

تشاركوا الزنزانة نفسها لثلاث سنوات. كان روبيرتو قد شعر بتعاطف خجول تجاه ماتياس. مرات أخرى كان ينظر إليه بغضب، كما لو أنه كان يرى نفسه فيه، وتلك المرآة القاتمة كانت تنقل له حزناً، من دون عزاء.

بعد شهرين من التشارك في العقاب، كانا قد قصا قصصهما مراراً، وعندما لم يكن هناك ما يقولانه، انحبس كل منهما في صمته وتضاءل الحوار.

كان روبيرتو سجيناً سياسياً. ماتياس مصنف كمجرم عام. لم يكن روبيرتو قد قتل أحداً، بالرغم من أنه في الحقيقة كان راغباً بذلك، لكنه خلال مرحلة كاملة كان يمارس هجوماً عنيفاً ضد السلطة. أكثر ما كان يزعج الديكتاتوريين ليست تعليقاته وإنما الشكل الساخر الذي كان يستخدمه. أكثر من عبارة من مقالاته كانت تظهر فيما بعد مرسومة على الجدران، كانت قوات حفظ الأمن تستغرق أسابيع في مسحها. كان كل شيء مناسب. كان بإمكانه أن يعلق على مباراة كرة قدم أو مهرجان (للتانغو)، كان دائماً يجد سبيلاً ضد اللذين في الأعلى. كانوا قد تسامحوا معه خلال مدة طويلة، ربما لأن الحكومة مهما كانت استبدادية وتعتقد ذلك، إلا أنها كانت واعية أن القضاء على تلك السخرية المرة

ضد نفسها. لكن ذات مرة وصلت السخرية لحاكم أجنبي في زيارة رسمية. ولم يكن بإمكانها التسامح مع هذه السخرية.

توقع روبيرتو اعتقاله منذ وقت. كان يعرف أن المزاح والسخرية تنفع كدرع حتى تصل إلى ما وصلت إليه، فقبلَ بمدة من السجن، بالرغم من أنه لم يتخيل أن تستمر أكثر من عدة أسابيع. المشكلة كانت، بالرغم من كونه صوتاً معارضاً، إلا أنه لم يكن منتسباً إلى أي حزب، ربما من أجل هذا لم تكن هناك أي حملة للدفاع عنه أو المطالبة بحريته. بعد ثلاث سنوات كان لديه شعور أن أحداً لم يعد يذكره، وهذا النسيان أيضا هو حكم.

ماتياس كان سجيناً لأسباب أخرى. كان لديه تجارة متواضعة، فقد كان يشتري ويبيع ملابس مستعملة. ذات مساء كان قد بقي في متجره ليتمم حساباته، دخل اثنان ملثمان معتقدين انه لا يوجد أحد في الدكان بقصد سرقته. وعندما وجدوه هجما عليه بمضارب البيسبول، لم يتردد ماتياس وأخرج مسدسه ـ فمن لا يحتفظ بمسدس هذه الأيام؟ ـ وأطلق النار عليهما. كان هدفه إخافتهما. هرب واحد منهما مذعوراً، لكن الآخر وقع، كما بدا مجروحاً في كتفه، وبقي هناك مطروحاً. اتصل ماتياس بالشرطة، التي حضرت بعد دقائق قليلة. تركوا الجريح في المستشفى وأخذوا ماتياس إلى المخفر متهماً بالقتل العمد، ودافع عنه محامٍ أحمق جداً، مضى على ماتياس في السجن ثلاث سنوات، بينما الجريح خرج من المستشفى وأطلق سراحه بعد يومين ـ ذكر أنه كان قد هاجم نتيجة الجوع ـ ، ولم يعد بالإمكان تعديل الحكم لأن الجريح كان قد غادر البلاد واختفت الحقيقة معه.

لا روبيرتو ولا ماتياس كانا وحيدين في وحدتهما. كان لروبيرتو صديقة لا يمكن تعويضها، عبارة عن عنكبوت بأرجل شعرية تتأمل في شبكتها، ومن هناك كان يحييها مرتين على الأقل في اليوم: في الصباح الباكر، عندما تستقر حزمة من الشمس لنصف ساعة في عشرين سنتم في منزلها، وأيضا عند هبوط الليل، عندما القشرة الصغيرة للعنكبوت كانت تصنع لمعاناً يقسم الظلام إلى مكانين. تحية العنكبوت كانت في تحريك رجلها الأكثر شعراً مرتين. كان روبيرتو يجيبها بعلامة النصر. ثم بعد ذلك كان كل منهما يدخل في ليله، بينما كان هو يحلم عادة بعنكبوت، والعنكبوت غالباً تحلم بذلك السجين المطرق واللطيف.

أما صاحب ماتياس بالمقابل فكان فأراً صغيراً، قزم تقريباً. كان السجين قد اشترى ولاءه ببعض الكسرات من الطعام التي كان يحفظها له من وجبته البائسة في السجن. لكن هذا الميليغرام الذي كان بالنسبة لماتياس نموذج من القرف كان بالنسبة للفأر يعني وجبة شهية.

وصل السجين لتصور أنه عندما كان يحرك الفأر شاربه بسعادة، كان هذا يعني إشارة بالشكر.

كان فأر ماتياس وعنكبوت روبيرتو يتجاهلان بعضهما تماماً. كانت تهبط من الشبكة ظلال من الازدراء ومن مخبأ الفأر المعتاد كانت تصعد، عندما كان هذا يطل، ومضة من الكره.

ذات يوم انتهت الديكتاتورية، من دون أي ضجيج، لكنها انتهت، والحكومة الديمقراطية الملتهبة أصدرت العفو المنتظر. عندما علما بذلك، أطلق روبيرتو وماتياس صيحات خجولة. قبل أن يفتح باب الزنزانة، أطلق روبيرتو لصديقته العنكبوت نظرة شكر، وبدا له أن

العنكبوت كانت تنكفئ من الحزن. من جانبه، نظر الفأر إلى ماتياس بشاربيه الواقعين. ولكن لم يمتلك أي من السجينين المحررين الشجاعة ليحمل معه صديقه.

بعد أن أطلق سراحهما تبادلا العناوين وتواعدا على عشاء احتفالي، بشامبانيا وكل شيء، دخل روبيرتو في حانة وهناك بدأ بكتابة مقال «ثلاث سنوات في قفص». ماتياس من جانبه، سار ببطء ليبحث عن متجره القديم. إذا كان مقفلاً، سأتركه هكذا، إذا كان مفتوحاً، سأقفله. لم يعد يريد المزيد من الهجومات ولا طلقات من الدفاع عن نفسه.

هذا ما كان يحدث في الخارج. أما داخل الزنزانة فكل شيء كان مختلفاً. أقفل الحراس الباب ووضعوا قفلاً، انفضت العنكبوت ببطء من قماشها، وشجعت الفأر على الخروج من حفرته. نظر كل منهما إلى الآخر من دون حقد، للمرة الأولى، مدركين وضعهما المأساوي الجديد. تقدما من دون صعوبات وتقابلا منتصف الطريق. إضافة إليهما، كان هناك فقط حزمة ضوء الشمس الصباحية.

فجأة راودت كلاً منهما الرغبة نفسها وانتهيا بالعناق، عالمين أن ما ينتظرهما هو نهاية من الهوان والحنين.

الحزن

بالنسبة للطيب اميليانو فاللغز الكبير لأعوامه الخمسة والثلاثون كان الحزن.

في مسيرة حياته الطبيعية لايوجد قلق ولا توجد أسباب لهذه الحالة من المعنويات. فهو طالب مجتهد في الابتدائية، طالب جيد في الإعدادية، شهادة حقوق من دون أن يرسب في أي مادة، ثم مستشار في بنك. لم يكن زيراً، لكن سنواته العشر من العلاقة مع زميلة لطيفة ومتفهمة تركته أكثر من مرتاح. لم يكن ميالاً إلى الغضب ولا إلى الاكتئاب ولا حتى إلى السلوى الدينية. كان الحزن الرتيب والمستقر يصاحبه حتى في الأحلام. لم تراوده أبداً أحلام سعيدة. النوم أو الاستيقاظ كان يعني العودة إلى نمطه الشخصي الرمادي. كان يفهم أن حزنه من دون سبب، لكن لم يستطع أن يتجاوزه.

مع ذلك، جرب ذات يوم انقلاباً غريباً. فقد بدأ كل شيء بألم متقطع في جانبه، على ارتفاع البنكرياس، وكان في تصاعد. هو الذي لم يذهب إلى الطبيب أبداً، قرر أن يزور طبيباً ليمنحه الثقة، وقد كان صديقه في الدراسة.

بعد التحيات ومجاملات اللقاء، فحصه الدكتور سواريز ما يقارب

الساعة. اضطجع أخيراً في مقعده المهني، وانتبه ايميلبانو إلى أن تعابيره لم تكن محفزة كثيراً.

ـ «من المبكر تشخيص أي شيء ـ قال له ـ سنجري كل الفحوصات الضرورية، لكنني أجرؤ على القول إن الأمر يتعلق بشيء جدي، جدي جداً».

ـ «جدي مثل ماذا؟» سأل ايميليانو.

ـ «سأكون واضحاً معك: جدي مثل ورم خبيث. لكن لا تقلق حتى الآن. يجب الانتظار. وعندما نحصل على النتائج، سنرى ما الذي علينا اتخاذه».

خلال ثلاثة أو أربعة أيام، ارتاد ايميليانو مخابر وعيادات للخضوع لفحوص وتحاليل، وتصوير... الخ. قبل معرفة النتائج استجدت حالة جديدة غير منتظرة. كان الفرح قد اجتاح ايميليانو للمرة الأولى في حياته الرمادية. أحس أن اقتراب الموت كان تأكيداً على الحياة. خلال أيام انتظار حزينة، كان أصدقاؤه يشاركونه ضحكاته، وتصرفات مازحة غير منتظرة.

عندما حضر يوم زيارة الصديق الطبيب مجدداً، استقبله هذا بعناق.

ـ «تهانينا يا ايميليانو. لا أخجل من الاعتراف لك أنني كنت مخطئاً تماماً في تشخيصي المهني. إنك بصحة جيدة. أظن أنك ستعيش على الأقل حتى التسعين. لا تعلم كم أنا سعيد لكوني أخطئت».

مباركة وعناق آخر.

شكر ايميليانو صديقه وخرج إلى الشارع مشوشاً شيئاً ما.

فقط عندما كان على وشك الوصول إلى منزله، انتبه إلى أن الحزن كان يجتاحه مرة أخرى.

ربيع آخرون

نظر ميغيل إلى يديه، تلك البقعتين المضيئتين اللتين ظهرتا من الظلام. منزله كان الأخير في هذه القرية، التي لا أحد يدري لم هي متروكة تماماً. ورث ميغيل سرير، حافظة مياه، مصباح بطاريات، ومقعدين مقوسين وصندوقاً يصلح كخزانة. وكان قد أحضر علبة متّة وسخّاناً كأمتعة وحيدة.

لماذا في هذا الكوخ؟ في الداخل كان كل شيء مظلماً، لكن في الخارج كان هناك قمر وصمت.

اليوم كان يتسول في الساحة إلى جانب التمثال، كانت النتيجة سبع (بيسوات)، وبطاقة هاتف كانت قد أعطته إياها طفلة ونبهته أن فيها رصيد لمكالمتين أو ثلاثة فقط، ثم ذهبت مسرعة.

قبل ذلك بشهر، مكالمته الأخيرة كانت لثيليا: «أنا ذاهب، لا أعرف إلى أين، لا تقلقي، أعرف كيف سأعتني بنفسي، سأترك لك فوق الثلاجة رسالة وداع».

كان الوداع يقول:

«لا أحتمل العالم، أريد أن أجد نفسي، الوحدة ضرورية لي حتى لو كانت لمرة واحدة في حياتي، لست مجنوناً، ولا أهذي. عندما تواجهين

هذه الليلة الأخبار في التلفاز، وترين هياكل عظمية لزنوج في السودان، أو قوارب لمغاربة يغرقون في المعبر، وهنود أصليين من الأمازون مدفوعين إلى الانقراض، دورات أساسية لعنف شبابي غير مكبوح، والتدمير المبرمج للطبيعة، ثم بعد ذلك، وفي المحطة نفسها أو التي تليها: استبداد الحكام المتعجرفين، مستبدين أو أوتوقراطيين، لا فرق تقريباً، مستعرضين بلا خجل شهوة السلطة، ولا مبالاتهم تجاه الآخر، فرادى أو جماعات. والأقبية الكبيرة للبورصة، بالقصة المليونية للمساهمين، عندما ترين كل هذا ربما تفهمين لماذا لم أعد أحتمل العالم. المعرفة الدقيقة لعجزي، عدم قدرتي أمام كل هذا البؤس لإنسانية تنتحر شيئاً فشيئاً، تجعلني أشعر أنه ليس لدي أدنى حق بالرفاهية، ولا بمهنتي، ولا بحبك، وأنا على وشك أن أقول إنني لا أستحق العيش. لكن لا تقلقي، لن أجهز على نفسي. ما لا أريده للبشرية، لا أريده لنفسي أيضاً. لكن علي أن أذهب لأمحو نفسي، أن أبقى وحيداً مع نفسي، أن أحاول فهم هذا المزاح الكوني الثقيل الدم، هذا الدمار من دون الإله، هذا الألم من دون معنى. اسمك هو أحد الأشياء القليلة ذات المعنى التي أخلفها خلفي. ربما إغوائي الوحيد من الندم قبل اتخاذ هذه الخطوة، لكنني هزمتها. شكراً للأبد، ميغيل».

يداه، هاتان البقعتان المضيئتان في الظل، هي أيضاً انتظام أو لثبات نفسي. في الخارج، تحت الشحوب القمري، كان هناك من أدلى بحضوره. خلف المنزل الرابع، شاب يتسلل، قميصه فاتح اللون، أبيض على الأغلب، يلفت كل انتباه القمر، لكنه يبقى ثابتاً، بانتظار شيء ما. الشيء المنتظر يصل مطوقاً.

الكوخ الثاني، إنها شابة بالطبع، لا يستطيع أن يميز ميغيل وجهها،

لكن الشابة مرنة، وعند رؤية الذي ينتظرها، تمشي ببطء تجاهه وتعانقه. النهاية السعيدة ـ يفكر ميغيل ـ لفيلم هوليودي في الستينيات. لكن هذين الزوجين ليسا من (سيلولويد). يحاولان الآن أن يمهدا مكاناً بين الحصى، كسرير من العشب. ثم يبدءان بنزع ملابسهما. لم يستطع ميغيل كف النظر عنهما مندهشاً غير مصدق. لكنهما تجاهلا وجود شاهد اختياري. استمرا بالممارسة بدون تأنيب ضمير، كما لو أنهما يصران على طقس كانا قد أقاماه لمرات ومرات.

يعترف ميغيل أن هاذين الجسدين الشابين، المتعانقين فوق العشب، في تمايل رقيق منتظم، متحدان في عناق نهائي، يعترف أن هذا الاجتماع يبدو كما لو أنه استعارة، لكنه سبب للكون أيضاً، شرح مبدئي لوصل شيء بالرغم عنه.

يعود الشابان إلى ثيابهما ببطء، يضحكان، يحتفلان. لا يستطيع ميغيل تمييز ما يقولان، لكن يبدو واضحاً أنهما سعيدين. ربما يتعلق الأمر بسعادة تلقائية لا مستقبل لها، من بإمكانه أن يعرف ذلك. يبتعدان أخيراً، متعانقين، ليبقى ميغيل مستغرقاً في تفكيره المشوش مرة أخرى.

لم يعد يشاهد يديه، أدخلهما في جيوبه وهناك وجد بطاقة الهاتف، عندها نهض، خرج إلى الليل، لم يكن هناك قمر، فقد قررت الغيوم حجبه لبرهة على الأقل. يمشي ثماني عشر خطوة، ببطء متردداً، كما لو كان يكبح نفسه. وعندما يجد هاتفاً عمومياً يدخل الكابينة، يدخل البطاقة التي أعطتها له الطفلة ويضرب سبعة أرقام، ثمة من يرفع السماعة من الجانب الآخر فيسأل ميغيل: «ثيليا؟»

الرجل الذي تعلم النباح

في الحقيقة، لقد كانت سنوات تعليمية صعبة وبراغماتية يتخللها أوقات من اليأس كان خلالها على وشك التخلي عن ذلك. لكن في النهاية انتصرت المثابرة وتعلم

(رايموندو) النباح. ليس بتقليد النباح كما يفعل عادة بعض المازحين أو الذين يعتقدون أنهم كذلك، وإنما النباح بشكل حقيقي.

ما الذي دفعه لهذا التدريب؟ كان يقول أمام أصدقائه بمزاح: «في الحقيقة إنني أنبح كي لا أبكي».

مع ذلك، فالسبب الأهم كان حبه تجاه إخوته الكلاب. الحب هو التواصل. كيف يكون الحب اذن بدون تواصل؟

بالنسبة (لرايموندو)، كان يوماً انتصارياً عند نباحه أخيراً، فُهم من قبل (ليو)، أخوه الكلب، و(شيء مذهل أكثر من هذا) لقد فهم هو نباح (ليو).

بدءاً من هذا اليوم، كانا يضجعان في الأمسيات، وكانا يتحاوران حول أمور عامة. (رايموندو) وبالرغم من حبه لإخوته الكلاب، فإنه لم يكن يتصور أن لـ (ليو) نظرة في غاية الذكاء للعالم.

أخيراً، ذات مساء تشجع على سؤاله، في عدة نباحات متقطعة: قل لي يا (ليو)، بكل صراحة: ما رأيك بطريقتي في النباح؟

إجابة (ليو) كانت مباشرة وصريحة: «أنا أقول إنك تفعله بشكل جيد جداً، لكن عليك أن تتحسن. فعندما تنبح، ما يزال يلحظ عليك لهجة بشرية».

اللقاء

التقيا في إحدى الحانات بينما كانا يتناولان كأس من الجعة، شرعا في الحديث عن الطقس والأزمة كما هو متوقع، ثم في مواضيع مختلفة غير مترابطة.

كان الرجل الهزيل على ما يبدو كاتبا، والآخر، رجل من عامة الناس. وراح الرجل الذي من عامة الناس ـ دون أن يعرف أن الرجل الهزيل أديب ـ يمتدح وضعية الفنان وما أسماه بـ «الامتياز» البسيط المتمثل في القدرة على الكتابة.

ليست الأمور رائعة كما تظن ـ قال الهزيل ـ فثمة أيضا لحظات قاسية جدا، يصل فيها أحدنا إلى نتيجة مفادها أن كل ما كتبه لا قيمة له.

ويحتمل أن لا تكون الأمور كذلك، لكن هكذا يعتقد الإنسان. حسنا، منذ زمن قصير مثلا، جمعت كل أعمالي التي لم أنشرها (أو لنقل عمل سنوات عديدة)، وناديت أفضل صديق لي، وقلت له: «حسنا، هذا لا يجد شيئا، لكنك تفهم أنه يحز في نفسي أن أقوم بإتلافها. ولذلك أطلب منك خدمة، وهي أن تحرقها من أجلي: فاقسم لي أنك سوف تحرقها».

وأقسم لي.

اصيب الرجل الذي من عامة الناس بالذهول كثيراً إزاء هذه القدرة على النقد الذاتي. غير أنه لم يجرأ على أي تعليق. وبعد برهة من الصمت، حك رقبته، وعب كأس الجعة: «ارنستو تشافيث، بائع متجول». ومد له يده.

ـ تشرفنا، قال الآخر وهو يضغط على يده بأصابعه الهزيلة،

ـ فرانز كافكا في خدمتك.

مسكين

ثمة مسكين يدعى فيليز نهض من قبره، تجرد ببطء من كفنه، ترك المقبرة وبدأ بالسير تجاه منزله. ما أن بدأ الجيران بالتعرف عليه، حتى اقتربوا لعناقه، أعطوه ملابس ليغطي عريه، هنأوه، وكانوا يربتون على ظهره العظمي.

ومع ذلك، ما أن بدأ الخبر يسري، حتى بدأت حرارة الترحيب تنخفض. فرجل كان قد أخذ منصبه الفارغ في مركز البريد نهره بقسوة: «إن عودتك لا تسعدني، ستطالب بعملك وربما يعطونه لك. أي أنني سأبقى في الشارع. تذكر أن في بيتي خمسة أفواه لإطعامها. أفضل أن تذهب».

أرملة المسكين فيليز، التي تزوجت بعد مدة وجيزة من وفاة زوجها، نهرته: «والآن ماذا؟ هل تريد أن يحكموا علي بتعدد الأزواج؟ إذا ما كنت تريد أن أكون سعيدة، اختفِ من حياتي، أرجوك».

ابن أخ له، كان قد ورث حينها بقراته الأربع ونعجاته الست، لامه بعنف: «لن يكون في نيتك أن يعيدوا لك ما هو الآن أصبح لي، اذهب أيها العجوز ولا تزعجنا أكثر».

المسكين فيليز قرر أن لا يتابع المسير. بل إنه أخذ يعود أدراجه، وأثناء عودته في الطريق كان ينزع الملابس التي أعطيت له.

أخيراً، عجوز صديق تعرف إليه ولم ينهره ولم يعبّر بشيء (ربما لأنه لم يملك شيئاً) اقترب ليسأله: «والآن، إلى أين أنت ذاهب؟» فأجابه المسكين فيليز: «لأستعيد كفني».

العكس بالعكس

لا أعرف ما بوسع روساريو أن تفكر، لكن بالنسبة لي كان يبدو أن السنوات الخمس التي مضت منذ آخر لقاء بيننا لم تكن قد مضت هباءاً. كنت قد رأيتها في التلفاز، كانت تجري معها مقابلة صحافية غبية، ووجدتها أكثر جمالاً، أكثر شباباً، أكثر ذكاءاً. ثم امتلكتُ الجرأة لمواجهة نفسي أمام المرآة، وبالرغم من أنني ـ لن أقل ـ وجدت نفسي أكثر شباباً ونضارة، إلا أنني تأكدت أن عينينا كانتا ما تزالان حيتان وتوصلان إحساساً عميقاً.

بعد هذا التحليل المزدوج، قررت العودة إلى الموضوع. بدا أن عدم التواصل هو مضيعة للوقت. لا أعلم ماذا كانت ستفكر هي حول هذه المحاولة، لكني كنت آمل أن تبتسم. وأعلم أن ابتساماتها كانت دائماً تعني القبول.

للبدء من الصفر، هل تذكر متى وكيف تعرفنا على بعض؟ كان ذلك في مركب بخاري كانت تمشي في الممر، لكن فجأة اهتز المركب فتزحلقت وكانت المسكينة على وشك الوقوع، وإن لم تكن قد وقعت تماماً فلأنني كنت منتبهاً والتقطتها بين ذراعي. بقيت مرتجفة قليلاً، فصحبتها إلى مقعدها، ومستغلاً أن المقعد الذي إلى جانبها كان فارغاً، جلست محاولاً أن أرفع من معنوياتها. وحدث ذلك فعلاً. شيئاً فشيئاً

أخذت تتطور ما بيننا هالة من التجاذب، قبل أن نصل إلى تبادل أسماء الفندقين حيث كنا نقيم في بوينس ايريس. ذهبت للبحث عنها بعد يومين وهناك بدأ الأمر. فندقها كما فندقي كانا مناسبين للحب، حيث مارسنا الحب برصانة، بصراحة، وبدون صخب.

هل ستذكر الآن بشكل تفصيلي مثلي ذلك الحفل خارج الحدود؟ بعد ذلك، في مونتفيديو، لم تكن مهمة الفنادق. كانت شقتي أكثر ملائمة وأقل خطراً. كان لدينا الميزة المزدوجة، أننا عازبين وشابين نسبياً. أنا كنت أعمل في مكتب لمحامين أصدقاء. وهي كانت قد عادت لتمارس مهنتها في النقد الأدبي.

أربع سنوات من التعايش الجنسي، المهني، الأيديولوجي والثقافي أسعدت حياتنا.

هكذا وبعد كل شيء، هلّت لحظة بدأت فيها العلاقة تخمد. استيقظت ذات ليلة ورأيت كيف كان جسدها يرتجف. أسندت يدي على أحد كتفيها لأشد انتباهها، ورأيت أنها كانت تبكي. نظرت إلي من بين دموعها ثم تمتمت: «إنه شيء فظيع، لكني لم أعد أحبك بعد الآن، والأسوأ أنني أحب رجلاً آخر، أنت الذي ساعدتني كثيراً لا تستحق أن أتركك، لكن ما الذي بإمكاني فعله».

أعترف أن هذه النهاية لم تفاجئني. فأنا كنت أشعر أن ثمة شيئاً ما يخلخل علاقتنا. ساعات بعد ذلك، عندما امتلأت النافذة بالضوء المتكدر قليلاً من الشروق، لملمت أشياءها ببطء وذهبت بعد أن كانت قد منحتني عناقاً شاكراً ومودعاً.

من جديد، وحيد وعازب، حاولت أن أكرس نفسي لعملي. كتابة

وتصحيح الاستمارات القانونية ليس شيئاً يُستمتع به، لكن نقص الحب ضاعف من طاقتي في عملي، وكانوا في المكتب راضون عن هذه الحالة المهنية.

فقط بعد عدة أشهر، علمت أن من حلّ محلي في قلب وسرير روساريو كان مصوراً رشيقاً جداً، وله شهرة زير نساء. وما عرفته بعد ذلك (القال والقيل تنتشر كالوميض) أن هذه العلاقة أيضاً انتهت بشكل سيء. حصل المصور على وظيفة في ميامي، على ما يبدو براتب جيد وذهب إلى هناك دون أدنى إنذار، تاركاً روساريو تتمتم بحقدها.

عندما عدت والتقيت بها كانت قد مضت الخمس سنوات التي ذكرتها بداية هذه القصة، الخالية من البطولة. عانقتني بحنان بالغ، خنقتني وهي تطالب بالغفران، وكما كان متوقعاً، بدأنا فصلاً جديداً. كانت سعيدة لبعض التعديلات التي أجريتها في التعديلات التي أجريتها على شقتي.

الآن مضى عامان من التعايش الجنسي، المهني، الأيديولوجي والثقافي حيث أسعدت حياتنا. مع ذلك، حضرت مرة أخرى اللحظة التي بدأت العلاقة فيها بالتخلخل. ذات مساء استيقظت هي وانتبهت إلى أن جسدي كان يرتجف. لكني لم أكن أبكي، ببساطة كنت واقعاً في أزمة من التثاؤبات، التنهدات والعطسات. استطعت في النهاية النظر إليها بحزن شديد وتمتمت: «إنه فظيع لكنني لم أعد أحبك بعد. والأسوأ أنني أحب امرأة أخرى. أعلم أنك لا تستحقين أن أتركك، لكن ماذا بوسعي أن أفعل».

أخي

أنا متأكدة من أنه لم يكن بين احتمالاتك استلام رسالة من أختك ريتا. فها أنا، ما زلت حية، بالرغم من أنني في بعض المناسبات لم أكن أريد أن أكون على قيد الحياة. لا أعرف متى التقينا آخر مرة، في زاوية ما في سوق الميناء. أذكر أنني قلت لك: «إننا محبطون»، وهذا ما كنت أشعر به في حقيقة الأمر. منذ مدة وأنا أحاول البحث عنك، ولكن لم أجد أحداً يدلني على جهتك. إلى أن وجدت عجوزاً في مكتبة في شارع كورينتيس (حيث أعيش في بوينس آيريس منذ عدة سنوات)، رواية لكاتب يدعى (غاري وينتر)، من ترجمتك، قررت عندها أن أكتب إلى عنوان دار النشر التي أصدرت ترجمة الرواية. أعلم أنه كإلقاء زجاجة إلى البحر، لكني كنت آمل أن تصلك.

ماذا أخبرك؟ أبدأ الكتابة بأنني لم أعد أشعر بالإحباط. بعد عامين في (توكومان)، عشت في قرطبة، في (ميندوزا)، وأخيراً انتقلت إلى (بوينس آيرس). سيبدو لك كذباً: استطعت أن أتخلص من المخدرات، لكن، بينما لم أستطع، أريد أن أقول لك أن ذلك كان جحيماً. لم أعرف شيئاً عن العائلة ولم يكن الأمر يعنيني. لقد حملت لك الحب دائماً، كنت تظهر أنت أحياناً في الذكريات، لكن بالنسبة للبقية، ليس هناك أي ذكرى تستدعيني، أو تثيرني. بالنسبة لأمي، ربما لم أستطع أن

أغفر لها؛ لأنها كانت تتعدى كثيراً على والدي، ولم أكن أستطع أن أغفر لوالدي ضعفه. ومع إيزابيل، حسناً، مع أختي، لم يكن بيننا شيء مشترك، باستثناء اسم العائلة. في الحقيقة، بحق أو من دون حق، بإمكان المرء العثور في داخله على قدرة ما ليصبح قاسياً. قسوتي، مثلاً، أختار طريقة لوضع مسافات، ربما لأنني كنت أشعر بنفسي على هامش الأشياء.

أخيراً عندما استعدت مكاني في العالم، عندما عدت لأصبح ريتا، قررت أن أتخلص من شركائي المؤلمين، من ذلك الوسط المختل. لذلك كان من الضروري ابتعادي جسدياً، وجغرافياً. وأتيت إلى الأرجنتين. بعد ذلك بقليل، علمت بوفاة العجوزين، بسنواتك في السجن، بموت العم. أعترف لك أنني عندها لم أذهب إلى (مونتفيديو)، ببساطة لأني كنت خائفة. لقد تركتني المخدرات ضعيفة، منهكة. لقد كلفتني العودة سليمة كثيراً. قواي القليلة التي بقيت لدي كنت قد صرفتها في التخلص من هذه المصيبة.

الآن يمكنك أن تكون مطمئناً فقد تعافيت، لكن عندها لم تكن لدي معنويات كافية للمخاطرة، لاسيما ما كان لدي من خوف اعتقالي، ليس لأسباب سياسية، وإنما نتيجة ماضيَ في بيع المخدرات. كنت قلقة من أن يؤذوا جسدي. ولهذا بقيت.

بماذا أخبرك؟ لقد أصبحت مصورة فوتوغرافية وبالرغم من أنك ستستغرب، لا أفعله بشكل سيئ. أعمل كمصورة مستقلة، لاسيما في الإعلانات. بعد كل شيء، اكتشفت مهارة كنت أجهلها. أستمتع بما يظهر في المنظار، بالصور التي أختارها، بالمصادفة أو بشكل مقصود،

في النهاية بالنتائج التي أحصل عليها. ويبدو أن عملي له تميز ما، لأنهم يتصلون بي من هنا وهناك. دائماً أطالبهم أن لا يعطوني خطة محكمة وإنما يسمحوا لي ببعض المرونة، لأستطيع أن أكون خلاقة قليلاً، وهو ما أحب. أفهم أن النظر في مربع المنظار هو أيضا شكل من أشكال إهمال باقي البانوراما. لكن الحقيقة أن هذه البانوراما بعدم احتمالية استبدادها الحربي مرة أخرى في أوجها، تصيبني بالكآبة كثيراً. مع كل شيء أقول لك أنني استطعت أن ألتقط صوراً رائعة لأمهات ساحة أيار، بوجوه خاصة وعامة حيث هن تاريخ كامل. أمر طبيعي أن تكون هذه الصور ليست للبيع، بما أن الأمهات يتوجهن إلي كل يوم، يخترعن مناسبات جديدة، حالات ضعف جديدة. لا، هذه الصور هي لي، أشكال ستصاحبني في تاريخي الشخصي. أفكر أحياناً: لو كنت اختفيت، هل كانت أمي ستخرج إلى الشارع حاملة صورتي؟، أنت ما رأيك؟ هل سألت نفسك ذات مرة هذا السؤال؟ أنا الآن لست وحيدة. أعتقد أنني لو كنت وحيدة لما كنت استطعت أن أتعافى. فأنا مع ماركوس.

ماذا أخبرك؟ أنا أكبر منه بعامين لكنه أنضج مني بكثير. هل تعلم ماذا يعمل؟ إنه عازف روك.

أعترف لك أنني لست متحمسة، على أية حال، عندما يعزفون شيئاً أحبه أحاول أن أكون بعيدة، لأنني أصاب بالدوار عندما أكون قريبة والصوت مرتفع. مرة أغمي علي ومرة أخذت بالتقيؤ. أفضل أن أستمع في البيت، إلى آلة التسجيل، فهناك أنا من يقرر نسبة الصوت. لدي انطباع أنه يجب أن يكون المرء شاباً حتى لا يغمى عليه مع هذه الأصوات.

عندما أتينا نحن إلى العالم، ولدنا بآذان للسمع إلى (غارديل)، إلى (فيفالدي)، إلى (بيسي سميث)، إلى (سميتانا)، إلى (غيرشوين)، أو إلى (البيتلز)، ولهذا لا ينفعنا الاستمتاع بهؤلاء الصاخبين. أذهب أحياناً لألتقط لهم بعض الصور بينما هم يعزفون، أذهب لأن ماركوس يطلب مني ذلك، لكنني أضع سدادات في الأذن لتجنب الإغماء، ومع ذلك أشعر أحيانا أنني على حافة الانهيار. مع ذلك كما ترى، أتواصل جيداً مع ماركوس عند غياب الضجة، وليس فقط في السرير، وإنما أيضاً في الحياة اليومية. بإيجاز: إنه شخص طيب، لقد أفادني حضوره. لا أستطيع القول إنني مغرمة كما يقال، لكن هناك علاقة جيدة بيننا، وهذا ليس بالقليل، أليس كذلك؟

ماذا أخبرك؟! علمت من خلال أشخاص تعمل في الروك أنك كنت في (مونتفيديو) ثم انتقلت إلى المكسيك وتملكني عندها شوق للقائك. أعتقد أنك الشيء الوحيد الذي أريد أن أستعيده من الماضي. أما الأمنيات الباقية فهي للحاضر وللمستقبل. هل تعلم أني أصبحت متفائلة؟ فظيع، أليس كذلك؟ لكنه كذلك. إذا ما التقينا ذات يوم (آمل ذلك) فسترى أن تلك الريتا التي التقيتها في سوق الميناء لن يكون لها علاقة بريتا القديمة. لقد أتممت السادسة والثلاثين الشهر الماضي. ستتخيل كل الأشياء التي علي أن ألوم نفسي عليها. كان هذا يزعجني. فهكذا جلست ذات ليلة أمام ورقة بيضاء وأخذت أسجل بالضبط، كل ما يزعجني. أؤكد لك أن النتيجة كانت سهلة ومفيدة: نقد ذاتي صارم وعنيد. قرأتها عدة مرات، وبالطبع انتهى الأمر بي إلى البكاء. عاهرة. آثامي السبعة كانت عبارة عن أربع وعشرين. عندها نهضت، ذهبت إلى الحمام واجهت نفسي أمام المرآة وسألت: «هل أنت قابلة لأن تعودي كما

كنت؟». للمفاجأة، رأيت أن تلك الرأس البائسة المشعثة وافقت. واقتنعت. وهكذا كما ترى، بإمكاني أن أعود، لقد ابتلعت آثامي. لهذا أكتب لك، حتى تعرف ذلك. أتجرأ على التفكير أن الخبر سيكون له وقع جيد عليك. هذا إن لم تتغير كثيراً. إذا ما زلت تملك تلك العيون الفاتحة والواثقة التي أعرفها؟

وأنت؟ أخبرني عن نفسك. أعرف أنك قبل أن تدخل السجن كنت قد تزوجت، وأيضاً أعرف ما الذي حصل فيما بعد. كل شيء. لكن اليوم، في المكسيك، ماذا تفعل غير ترجمة روايات بوليسية؟ هل أنت لوحدك؟ هل لديك امرأة، أطفال، أصدقاء؟ هل تفكر بالعودة، بما أن العسكريين الآن يرتاحون في منتجعاتهم الربيعية؟ أخبرني عن مشاريعك. أخي، علينا أن نعاود اكتشاف بعضنا، أن نعاود البحث كلٌ عن الآخر. فبعد كل شيء، أنت وأنا، نحن العائلة التي بقيت لنا، أليس كذلك؟

بصمات

في أرشيف المشتبهين في قسم الشرطة، كانت تلك البصمة موجودة في الظلام وكانت تشعر بالوحدة، كانت تشعر بالحنين لأمها اليد. وخطوطها الناعمة الدقيقة، كانت كصورة لحزنها. لذلك عندما أشعل الضوء وثمة من وضع إلى جانبها بصمة جديدة، ولّد هذا الاقتحام أملاً سعيداً.

ما أن أطفأ الموظف الضوء وأقفل الباب، حتى تجرأت البصمة الأولى على القول:

ـ مرحباً.

ـ «مرحباً». ردت بصوت أبح الواصلة حديثاً.

ـ يا للحظ إنك أتيت. عند هذا الحد، بدت لي الوحدة شيئاً لا يطاق. من أي إبهام أتيت؟

ـ من يد صحفي. وأنت؟

ـ قوات قمعية.

ـ مهمة شاقة، أليس كذلك؟

ـ لماذا تقولين هذا؟

ـ تعذيب، آه.

ـ كثيراً ما يتكلم وينشر، لكن ليس صحيحاً دائماً.

ـ أبداً؟

ـ أحياناً نعم. أعترف أن إبهامي عانى من تعذيب مكثف.

ـ ما هي ذكراك الأفضل؟

ـ حتى أكون واضحة معك، عندما كانوا يوكلون إلينا مهمات مكتبية. لم يكن هناك دموع، ولا شتائم ولا صراخ عليهم. وماذا عن الذكرى الأفضل لإبهامك؟

ـ ملمس صرة نسائية. صديقة فرنسية وصاحب إبهامي كانا قد اشتركا في الألعاب الأولمبية وكانا يلعبان الجودو.

ـ لماذا أخذوا بصمتك الرقمية؟

ـ تجديد لا حكم عليه. وأنت؟

ـ ثلاث سنوات من الاعتقال. حقوق إنسان، هيئات للسلام، حالات اختفاء، كل هذه الحماقات.

ـ وهنا كما ترين، كلهم سواء.

ـ ماذا يبقى لنا؟

ـ التحلي بالصبر. إبهامي كان ملحداً.

ـ إبهامي بالمقابل كان مؤمناً.

ـ هذا لا يهم. فبعد كل شيء، يد الله لا تترك بصمات.

حلم بصوت عالٍ

لا يلتقي لوثيانو مع والده بشكل اعتيادي. بينما يرى أمه بشكل أكثر من اعتيادي ولكن لشعور بالمسؤلية أكثر منه محبة.

مثل أي ابن لأبوين مطلّقين، فإن لوثيانو كان يشعر باليتم نوعاً ما. مع ذلك استطاع أن يستقل، وبعد خطبة طبيعية وليست طويلة كان قد تزوج من ثيثيليا.

ذات سبت،عند منتصف النهار، التقى بأبيه، وبقرار من العجوز دخلا مقهى وسط البلد.

ـ «سأستغل هذا اللقاء العابر، لأوجه لك سؤالاً هام» قال لوثيانو.

ـ «هيا».

ـ «لماذا انفصلت عن أمي؟»

ـ «ليس من السهل شرح السبب، لاسيما بالنسبة لك حيث أنك لم تواكب تلك الفترة. دائماً كنت أشعر بالعطف تجاه والدتك. ليس عاطفة، أفهمها جيداً، لكن نعم عطف. وكنت أعتقد أنها هي أيضاً كانت تشعر بشيء مشابه تجاهي. لكن ذات ليلة وصلت إلى البيت في وقت متأخر لأسباب تتعلق بالعمل، وكانت هي نائمة بعمق. فجأة شعرت أنها تتمتم بشيء في منتصف نومها واستطعت أن أميّز الاسم: انسيلمو،

انسيلمو. كان جاراً، لنا علاقة جيدة به. في اليوم التالي، بينما كنا نتناول الإفطار، سألتها ماذا بشأن انسيلمو. فأخذت بالبكاء ومن دون أن تجرؤ على النظر إلي، اعترفت لي أنهما كانا عشيقين. وكانت هذه النهاية».

بعد ذلك بأشهر، سأل لوثيانو السؤال نفسه لوالدته.

ـ «لماذا تطلقنا؟ أنا لم أتكلم بهذا الأمر معك أبداً لأنني أعتبره أمراً شخصياً جداً. أنا ووالدك كنا قد عشنا جيداً خلال ثمانية عشر عاماً من الزواج. أعترف أننا لم نكن عاشقين، لكننا كنا نحتمل خلافاتنا وشجاراتنا الاعتيادية، التي كانت تضفي على العلاقة الزوجية شيئاً من المتعة. ذات مساء، في ساعة القيلولة ـ هو دائماً ينامها، أما أنا فأبداً ـ ، بدأ بالكلام في أحلامه، وكرر عدة مرات الاسم نفسه: اينيس، اينيس. كان يتلفظها بطريقة حميمية بطريقة لم يوجهها إلي أبداً. اينيس هي زميلة لي في المكتب، كانت قد تناولت طعام العشاء معنا. جميلة ولطيفة. عندما استيقظ أبوك وأخذ حماماً، سألته: «هل تحلم بحميمية دائماً مع اينيس؟» وكما كنت أنتظر اعترف لي أنهما على علاقة منذ عامين على الأقل. وهكذا انتهى كل شيء».

بعد هذه الاعترافات (أي منها هو الصحيح؟، هل يكون كلاهما صحيح؟) شعر لوثيانو باليتم أكثر من المعتاد. لمدة ساعتين أو ثلاث ساعات، تشرد مثل مجنون في الشوارع الأكثر ازدحاماً، معتقداً أن بإمكان الجموع أن تمسح عنه الحزن.

أخيراً قرر أن يلتجئ إلى منزله. كان الوقت متأخراً وكانت ثيثيليا قد اضطجعت. في منتصف نومها، أثناء تقلبها في السرير حضنت وسادة، وفي مرحلتين قالت: لوثيانو، لوثيانو.

شعر لوثيانو بالفخر والانشراح. تركها تنام بأمان، وذهب إلى المطبخ ليحضر كوباً من القهوة. تناوله بشغف وكان يغسل الحوض عندما لمعت في رأسه فكرة... تباً، هناك ابن عم أيضاً يسمى لوثيانو. هو اسمه لوثيانو غوميز وابن العم اسمه لوثيانو استيفيز. هل من الممكن؟ لم يكن يريد أن يصدق، لكن الشك ولّد له خفقات قوية في القلب.

عاد إلى غرفة النوم حزيناً بعض الشيء. كانت ثيثيليا ما تزال تحتضن الوسادة وعادت لتتلفظ بوضوح: لوثيانو، لوثيانو.

اضطجع في السرير واستطاع فقط أن يسأل نفسه: «لماذا لا تحلم النساء أبداً بأسماء العائلة؟

حول الآثام

أن تشعر بالإثم، دائماً هي متعة غير منتظرة تقريباً. فهل هناك، مثلاً، شيء أكثر متعة من الخيانة؟

كان هيرموخينيس كاستيللو يفكر في مكتبه المخصص لمدير الشركة. كانت الحادية عشرة صباحاً. ولجت شمس رائعة من النافذة الواسعة ولم يكن هناك على الطاولة أي شيء يحرض على ذلك الرأي الواثق. بعد عشر سنوات من الزواج، لديه علاقة جيدة بزوجته، التي كانت جميلة، ذكية وعملية (سكرتيرة قوية في شركة أزياء)، مع ذلك فقد كان دائماً مندفعاً لإقامة بعض الخيانات القصيرة، حيث كانت تدوم عادة لمساءين أو ثلاثة في فندق، أو في مناسبات خاصة، بإقامة مريحة في شقة سرية.

كان دائماً يحرص على أن لا يقع في حب أي من عشيقاته المؤقتات، وفي الوقت نفسه كان يحرص على أن لا تقع في حبه أي

منهن. عادة ما كان يفكر أن مسألة الخيانة يجب أن تكون مذكورة في الوصايا الإحدى عشرة في قانون السيد المسيح.

كما لم يكن قضاء وقت الاستراحة محفزاً له أبداً، خرج ليتناول غداءه أبكر من المعتاد وفي مطعمه المعتاد، وبينما كان ينتظر اللحم، تفحص أجندته بعناية، ووصل إلى نتيجة مفادها أن الاتصال بـ (ماريا خوليا) لتحديد موعد في فندق سيكون الأنسب لاسيما أنه اهتاج عندما تذكر أن زوجته اليوم ستعود متأخرة، بما أن عليها أن تزور والدتها، التي كانت في مرحلة نقاهة من استئصال ثدي.

اتصل إذن بـ (ماريا خوليا)، لكن أجابه صوت المجيب الآلي الفظ فقط.

بالعودة إلى الأجندة (خورخيلينا) ليس اختياراً سيئاً، كانت تتصرف في السرير أفضل من أي واحدة أخرى، اتصل وهذه المرة تمت الإجابة.

ـ «(خورخيلينا)».

بعد تردد قصير، قالت: «نعم».

هذه مناسبة خاصة لاستخدام الشقة، حيث التقيا في السادسة مساءاً.

استمتع (هيرموخينيس) كما في مرات أخرى بالصدر الوردي والمؤخرة الجميلة لساعة ونصف الساعة.

بعد ذلك، بعد القبلات الأخيرة استحم ليتلافى أي بصمة ذنب، ركب في سيارته (البيجو)، ترك (خورخيلينا) في منزلها وسار باتجاه منزله المحترم حيث كانت بانتظاره مفاجأة.

على باب الثلاجة، كانت هناك ورقة صغيرة مثبتة بشريط لاصق:

«آسفة، يا زوجي لهذا الخبر. أعلم أنك أثناء عشر سنوات كنت تشعر بالملل معي أحياناً، وأعترف لك أنني أيضاً كنت أشعر بالملل أحياناً أخرى. ليس سبباً صارخاً، لكنني قررت أن أنهي هذه المرحلة من السأم. هل تذكر (فيرمين)، رجل الأعمال من قرطبة؟ حسناً، منذ مدة ونحن نلتقي ونتبادل اللمسات، وقررنا أخيراً أن نعيش معاً. رجاءاً لا تبحث عنا، لأننا اليوم سنذهب إلى روما وأجهل وقت عودتنا. كما تعلم، (فيرمين) مقتدر جداً وهو يؤمن على ماله جيداً، وهكذا، سنسافر كثيراً وبالتالي لن نمل. آه، والدتي أصبحت أفضل بكثير. وداعاً، (أندريا)».

فتح الثلاجة بكل الأحوال، أخرج عدة مكعبات من الثلج، وصبّ لنفسه جرعة قوية من الويسكي. ثم استلقى على الأريكة الأوسع في الصالة. ولمفاجأته، بدا له أن عيناه مبتلتان. هل هي دموع؟ نعم، هي كذلك. شعر في هذه اللحظة، أن الحياة لم تكن عادلة معه.

حتى الآن كان يشعر بالسرور العميق أن يكون المرء غادراً، لكن لم يحتمل أن يكون مغدوراً.

رمي الأوراق

عزيزتي الشابة:

لا تستغربي أن أناديك هكذا. فبالرغم من السنوات التي مضت، إلا أنه بالنسبة لي ما زلت الشابة التي كنت دائماً، التي تعبر الساحة من الإثنين إلى الجمع، ، في السابعة إلا ربع، لافتة الأنظار الشبقة للرجال في المساء. جميعنا كنا ننزع عنك رداءك ذو الورود، بالرغم من أن كل منا كان يتخيل صور مختلفة.

لن أتوقف عن شكر الدكتور انسيلمي، الليلة التي عرّف فيها كلاً منا إلى الآخر في قهوة غلوريا وتركنا بتواضع، ليدعنا للمرة الأولى لوحدنا، وهناك بدأ كل شيء.

بعد ثلاثة أشهر من ذلك منحت ميزة نزع ذلك الفستان الوردي ـ كانت ورود أخرى، بالطبع ـ ووجدت أنك كنت تفوقين كل التخيلات لحدسي أو استقرائي. لحسن الحظ لم تكوني كاملة، لكن عدم كمالك كان يمنح خصوصية لا تتكرر لحبي.

ربما تسألين نفسك لماذا أخبرك بكل هذا الذي تعرفينه عن ظهر قلب، لماذا أتذكر، أصل الوقت، أي وقتنا. ربما لأنني وحيد أمام البحر واستحضارك هو شكل لتحمل عبء الوحدة. طيور السنونو، سريعة كما

هي دائماً، تمر وتعود لتعبر الهواء محتفلة بالربيع، وأنا في الوقت نفسه، بطيء كما أنا دائماً، أمر وأعود لأمضي شتاءاتي.

لا أدري لماذا أنظر إلى العروق الزرقاء في كعبي النحيلين والمتعبين، وأتقبل ما كنته وأيضاً ما كنت أريد أن أكونه ولم أستطع أن أكونه.

صورتك حاضرة في كل شتاء يمضي، تلك الصورة المؤطرة التي تنتظرني في جدار غرفتي. ومن توالي فصول الشتاء تحضر واضحة بدقة: «لا يمكن الاستمرار»، هذا ما قلته لي دائماً.

عزيزتي (اندريا):

اليوم عرفت، عن طريق صديقتك ناتاليا، أنك تزوجت للمرة الثانية، ويبدو أنك سعيدة. أعرفك بما فيه الكفاية لأقول لك أنك تستحقين السعادة، لكنني شريف بما فيه الكفاية لأصرح لك أن هذه المغامرة الجيدة لا تتركني سعيداً، بما أنني بالطبع كنت أفضّل لو كانت معي.

لماذا لم تكوني سعيدة في سنواتنا الخمس عشرة؟ صحيح أننا كنا نتناقش باستمرار، لكن هذا كان يحصل لأننا كنا وما زلنا مختلفين تماماً. بالنسبة لي، لقد كان عدم التشابه هذا يسبب لي جاذبية أكثر، بما أنه من المعروف أن الأزواج عادة يملون بشدة.

من جانب آخر، بالرغم من أنني قلت لك في كثير من المرات على سبيل المزاح أنني كنت مخلصاً لكن ليس متطرفاً، في الحقيقة إنني لم أغشك أبداً. بالرغم من أنني أوشكت على ذلك ذات مرة، لكن في قلبي (أسف على الاسفاف) فقط كان هناك مكان لك. هل كنت أنت أيضاً

مخلصة لي؟ هل كان في قلبك شيء تجاهي؟ لا أستطيع معرفته. على الأقل أنا على يقين أنك عدت لمعاودة حياتك الزوجية عامين بعد وضع نقطة، أو كانت نقطة نهائية؟ كيف هو زوجك؟ لا. يفضل أن لا تخبريني. فمن غير المحمود أن أصاب بسكتة قلبية بسبب الغيرة. آمل أن تستمتعي به ويستمتع بك. على الأقل عندك خبرة عن مؤشرات الحياة الجنسية، أين تكمن الحدود. سيكون فضولياً.

هل احتفظت بذكريات قصتنا الملغومة لتستعيدينها في مناسبة ما بصمت، والتي للأسف، ما زلت لا أعرف جيداً لماذا...؟ ـ وهنا يفضّل استخدام مصطلحات كرة القدم ـ ، هل خسر الفائز؟

سيمضي الوقت. سيكون هناك ربيعات أخرى في المستقبل، طيور سنونو أخرى ستعاود دورانها، لكني عنيد في استحضاراتي وبإمكاني أن أؤكد لك أني لن أنساك. لدي رغبة بإرسال عناق لك. لكن لا أرسله، لأني طيب لدرجة أنني لا أريد أن تواجهي مشكلة إذا ما اكتشف أحد هذه الرسالة.

لا تقلقي. هذه الرسالة ستكون جزءاً من رحلة. قبل أربعة أيام وصلت إلى باريس، بقصد أمور مهنية.

آب ليس هو الشهر الأفضل لزيارة المواقع. وأيضاً هو غير مناسب للقاء أحد الأصدقاء الباريسيين. هل تذكرين كلاوديو موريو؟ اتصلت به فور وصولي. أجابتني زوجة ابنه كلاوديا؟ توفي في تشرين الثاني». تمتمت عزاءاً مختصراً وولجت إلى مقهى البايس، حيث كنا نلتقي به كثيراً. أذكر أنه في المرة الأخيرة التي التقينا فيها لم يكن يصدق أنه أصبح أرملاً. كان له ابنان، كانا يعتنيان به لدرجة الدلع، لكن لم يكن

الامر ذاته. سنوات قبل ذلك كنت قد تعرفت إلى انخيليبنيس، من استورياس كانت تكتب قصصاً، بالمناسبة جيدة جداً، وحقيقة كانت محبوبة.

هل تذكرين اوديل؟ حسناً، تزوجت من رجل نيجيري غامق اللون جداً وذهبا للعيش في كندا. على ما يبدو، كلاهما كان متخصصاً في المعلوماتية، وهما يعملان ويكسبان جيداً. إلا أن (اوديل) حامل وكلاهما يقومان بتكهنات، حول لون المولود الجديد.

آه، كما كان يجب، زرت اللوفر. وهل تعلمين ماذا وجدت؟ ابتسامة الجيوكاندا تشبه ابتسامتك تماماً. على الأقل، التي كنت تتمتعين بها في أوقات شاعرية.

يبدو لي أنه من الذكاء أن تكوني قد أرسلت لي رقم صندوق بريدك. على أية حال، رسالة اليوم لن تثير أي ريبة. هل تعلمين لماذا؟ لأنني تزوجت. نعم، بالرغم من أنه سيفاجئك الخبر، لهذا أرسل لك رقم صندوق بريدي: ١٤٠٤٣.

الآن حسناً، اليوم انتبهت أنني لم أكتب لك منذ عام تقريباً.

أؤكد لك أن التأخير ليس له أي علاقة بحالتي الزوجية الجديدة. ببساطة، لقد تكاثرت علي الأعمال والمشكلات. والأمر ليس أنني لم أكتب لك فقط، وإنما لم أكتب لأحد ممن اعتدت الكتابة لهم.

امتلأ مكتب المحاماة بالأوراق، وثائق، مستندات بيروقراطية، نسخ مكدسة، قوانين وأمور أخرى.

قضيت عمري في المحاكم، قصر العدل،... الخ. أيضاً الزواج قلص من اوقات الفراغ. الحصول على منزل أكثر راحة، الاعتياد على حموي

الجديدين وعاداتهم، تقاسم المسؤوليات اليومية مع باتريثيا زوجتي الجديدة، كل هذا جعلني أسهر وسبب لي الأرق، وهي مشكلات لم تواجهني أبداً. باتريثيا متسامحة وودودة. إنه ارتباط مختلف تماماً عن الذي كان لي معك. أقل حرارة، أكثر هدوءاً واستقراراً، ومع ذلك سهل.

سأخبرك كيف تعرفت إليها. ذات جمعة في مكتبي ـ هي أيضاً محامية ـ كانت تصطحب زبوناً محاطاً بالمشكلات: العائلية، التجارية، العقارية، الإدارية. كانت كثيرة وسطحية ومعقدة، فطلبت منهما أن يتركا لي كل تلك الأوراق لدراستها بالتمعن المطلوب، وأن يعودوا لرؤيتي بعد أسبوع. تلك المعضلة كانت فظيعة، لكن لم يكن حلها صعباً، ففي الجمعة التالية عندما عادت باتريثيا، لوحدها من دون الزبون، طرحت عليها رأيي وهي بقيت مندهشة. ربما من أجل هذا استلطف كل منا الآخر، واتفقنا على تناول الغداء الثلاثاء التالي. كان الأول في مجموعة غداءات وعشاءات، وتابع كل شيء سيره.

في الحقيقة كنت قد مللت قليلاً من الحياة الزاهدة، لاسيما باعتبار أنه، كما تعلمين أنت جيداً، لم يكن لدي أبداً ميل إلى الوحدة.

هي كانت حرة أيضاً. كانت عازبة وتراكم العمل المهني لم يمنعها من فهم أن السنوات كانت تمر بإيقاع لا يرحم. أي: هذا لذاك.

مضى لنا خمسة أشهر من التعايش، ويبدو أن الأمر يسير جيداً. أخذنا الشهر الماضي خمسة عشر يوماً من الإجازة وذهبنا إلى (بيريابوليس)، بإمكاني أن أقول لك أننا هناك تقريباً بدأ كل منا حقيقة التعرف إلى الآخر، وبدأنا بتسليط الضوء على سيرتنا الذاتية ـ إذا كان

لديك شك، لم أخبرها عن مرحلتنا أنا وأنت ـ ، التي بالمناسبة لم تكن استعراضية كثيراً. هذه هي القصة. في الحقيقة أنا أشعر جيداً. الوقت مازال يمر وليس هناك حزن ولا عذاب. آمل أن الأمور بالنسبة لك تجري جيداً أيضاً.

أرسلي لي أخباراً عندما تستطيعين. بما أن هذه ستذهب إلى صندوق البريد، الآن بإمكاني أن أرسل لك عناقاً، بود قديم ومتجدد.

عزيزتي (اندريا):

لا أعلم لماذا، لكنني اليوم شعرت بالحنين لك، اشتياق لحضورك. ربما لأن الحب الأول يترك بصمات أكثر من أي حب دائماً. الحقيقة أني كنت في السرير، إلى جانب باتريثيا وهي نائمة باطمئنان، وشعرت بحنين حاد لتلك السكينة التي كانت قبل البارحة. ثمة من قال إن النسيان مليء بالذكريات، لكن صحيح أيضاً أن الذاكرة لا تستسلم. أسمع من حين لآخر أجراساً بإيقاع قلبي، ومشهد يحضر في الوعي مثل شاشة تلفاز. وذلك الجسد، والتي كانت يداي قد نسيتاه تقريباً، اليدان تعودان الآن لتظهر كوميض إلى أن تصدر مرة أخرى الأجراس وينطفئ الوميض.

هل يحصل هذا حقيقة؟ أم أنني صرت على حافة الجنون؟ ممكن. أثناء ذلك، هذا المجنون المحتمل يرسل إليك عناقاً غير مجروح.

عزيزتي (اندريا):

قبل أي شيء، مهتاج كما أنا، أشعر أنني مضطر لنسخ رسالتك:

«أنا أيضاً مجنونة. أنا أيضاً أحلم بك، مستيقظة ونائمة. أنا أيضاً أسمع أجراساً. أنا أيضاً أشتاق، ليس فقط ليديك في جسدي، وإنما أيضا ليدي في جسدك. لن أترك زوجي، لأنه طيب وأنا أحبه، لكني

أريد أن ألتقي بك بأجراس أو من دونها، لكن أن أكون معك. هل يمكن ذلك؟»

طبعاً يمكننا ذلك، أيتها المرأة الأولى. وأنا أيضاً لا أفكر بترك باتريثيا، فالحقيقة أنني أحبها. لكن الحقيقة الطاغية الأخرى هي أني بحاجة لأكون معك. لدي شعور بأننا، أنت وأنا، حيث لم ننفع كثيراً كزوجة وزوج، لكننا ننفع بجدارة كعاشقين. هل تذكرين ذلك «مخلص لكن بدون تطرف»؟ إلى الجمعة، أيتها الشابة، في القهوة التي كنا نلتقي بها دائماً.

توائم

(لياندرو) و(فيسينتي اكونيا) كانا توأمين، كانا متشابهين لدرجة أن والديهما كانا غير قادرين على التفريق بينهما. لم يكن غريباً أن يتلفظ أحدهما بشتيمة لتكون الصفعة من نصيب الآخر. كانت مرحلة الدراسة كلها ميزات. كانا يقسمّان بعناية المواد على بعضهما. فإذا ما كانت ثمانية، فكل منهم كان يدرس أربع مواد ويتقدم للامتحان نفسه مرتين، مرة كـ(لياندرو) وأخرى كـ(فيسينتي). لهذين المحتالين الاثنين، فالترادف العضوي كان يتشكل عادة من المتعة، وعندما كانا يلتقيان لوحدهما كانا يراجعان أخطاء اليوم بقهقهات قوية.

كان (لياندرو) أطول بسنتميتر واحد من (فيسينتي)، ولكن لم يكن هناك أحد يحمل متر ليتأكد من ذلك. بالاضافة، إلى أن كلاهما كان يستخدم قبعة، واحدة خضراء وأخرى زرقاء، لكنهما كانا يتبادلانها في أي حالة دنيا للشك.

أتت المشكلة عندما تعرفا إلى الأخوات برونيت: (كلاوديا) و(ماريانا)، أيضاً توأمان متشابهتان وكانتا متطابقتين بشكل لا يصدق. كما من المتوقع، وقع (الأكونيا) في حب (البرونيت) والعكس. اثنان لاثنان، بالتأكيد، لكن من مع من؟

ظنت (كلاوديا) أنها وقعت في حب (لياندرو)، لكن قبلتها المؤثرة

الأولى كانت قد استقبلتها من (فيسينتي). هذا الخطأ أيضاً سبب صراعاً داخلياً بين (الأكونيا)، ولم يحل بالطبع عن طريق المزاح.

في مناسبة أخرى، ذهب (فيسينتي) إلى السينما مع (ماريانا).

عندما وصل الفيلم إلى نهايته وأناروا الأضواء، راقبت هي ذراعه العاري، وقالت، متفاجئة وساخرة: «البارحة لم يكن لديك شامة».

كانت الخاتمة لتلك التشابهات مفاجئة. ذات مساء حيث كانت (كلاوديا) تستقل سيارة أجرة مع والدها، أصيب السائق بغيبوبة مفاجئة واصطدمت السيارة بجدار. بقي السائق والوالد مصابين، لكن بقيا على قيد الحياة. (كلاوديا) بالمقابل، توفت على الفور.

في الجنازة الحاشدة، تعانق (لياندرو) و(فيسينتي) مع الباكية المكتئبة (ماريانا). فجأة ابتعدت عن الذراعات المعانقة، واتجهت بخطوات غير واثقة إلى الغرفة حيث كان يضطجع جسد المسكينة (كلاوديا). بقي التوأمان في حالة صمت، ببساطة كائنين آخرين في مجموع المتألمين.

بعد بضعة دقائق، عادت (ماريانا) للظهور. بمنديل، مسحت آخر دمعة من دموعها. نظر إليها التوأمان بتفحص، كما لو كانا يتساءلان: «والآن، مع من؟».

عندها جمعت كليهما لتدلي بقرار لا رجعة فيه: «آمل أن تفهما أنني الآن نصف نفسي. شكراً للحضور. والآن اذهبا. لا أريد أن أعود وأراكما بعد اليوم».

ذهبا، بالطبع، مطرقين رأسيهما إلى الأرض. ساعات بعد ذلك، عندما أصبحا في منزلهما، أخذ الكلمة (لياندرو): «أخي، أعتقد أن

تشابهنا عليه أن ينتهي هنا. من الآن فصاعداً، علينا أن نفرق بيننا. لنقل إنني مثلاً سأصبغ شعري أشقر وأنت ستطلق ذقنك. ما رأيك؟».

وافق (فيسينتي)، بتشجع، وكان لديه فقط معنويات ليعلق: «حسناً، حسناً. لكني أقترح عليك أن نذهب غداً إلى المصور حتى يلتقط الصورة الأخيرة للتوأمين».

لقية

(غينارو) و(فيرمين) تربطهما علاقة منذ أيام المدرسة، والآن وهما في الثانية والأربعين، اعتادا أن يجتمعا أيام السبت مساءاً في الحانة المتواضعة (هوريزينتي)، التي كانت قبالة الحديقة.

كانا يتحدثان عن ذكريات الطفولة، عن أفلام قديمة عرضت حديثاً، وعن كتب كانا قد قرآها وتبادلاها، وأحياناً عن أمور كانا يعتبرانها وجودية، الانتحار مثلاً.

ـ أنا أعتقد أنني لن أنتحر أبداً. قال (غينارو) بعد أن تمطى برغبة. لماذا...؟، النهاية ستأتي دون أن يستدعيها أحد، ألا تعتقد ذلك؟

ـ أنا بالمقابل، لا أتجرأ على ذلك. بعنف أجاب (فيرمين).

ـ لكن، لأي سبب؟ حزن؟ ضائقة مالية؟ مرض؟ خيانة عاطفية؟

ـ لا شيء من هذا. إذا ما جاء مساء سديمي، دون دوي، وصلاة تبشيرية، سآخذ قراراً مثل هذا، سيكون ببساطة للفضول، لمعرفة ما سيأتي بعد ذلك. بإمكانه أن يكون ساحراً.

ـ هذا إذا ما كان هناك شيء.

ـ انظر، من أجل الشكوك. إذا ما قررت ذات مرة الوصول إلى

النهاية، وكنتيجة وجدت شيئاً، أي شيء، ببساطة ستكون الإشارة تساقط الأوراق الجافة وإن كان الوقت ليس خريفاً.

ـ وهذا؟

ـ حلمت به.

ـ حسناً. حسبت أنك تهلوس.

كان هذا الحوار في السبت الأخير في تشرين أول.

السبت الأول من شباط التالي، التقى (غينارو) و(فيرمين) كعادتهما في الحانة (هوريزينتي).

بقيا صامتين مدة طويلة. كان يبدو أن كل المواضيع قد انتهت.

أنهى (فيرمين) قهوته وكان يعلك الهواء لبرهة طويلة.

نهض فجأة، وجه له نظرة حادة وقال: «وداعاً».

رآه (غينارو) مبتعداً باتجاه غابة الصنوبر. ثم أضاعه فيما بعد. نصف ساعة بعد ذلك، سمع صوت طلقة قوية ومن دون أي صدى.

إثر الفزع الأول وقبل أن يتعافى من المفاجأة، انتبه (غينارو)، إلى أن سرباً من الأوراق الجافة تطاير إلى طاولته رغم أننا في منتصف الربيع.

أشيائي المنسية

فتحت الشابة عينيها وشعرت بالشكوك تطغى عليها.

لا تتذكر شيئاً...، لا اسمها، ولا عمرها، ولا تفاصيلها. رأت أن تنورتها بنية اللون وبلوزتها بلون سكري، لم يكن لديها محفظة، وساعة معصمها كانت تشير إلى الرابعة والربع.

شعرت بلزوجة في لسانها وينبض في حنكها.

نظرت إلى يديها ورأت أن أظافرها كانت مطلية بلون شفاف. كانت جالسة في مقعد بساحة محاطة بالأشجار، وفي الوسط هناك نافورة قديمة يتوسطها تماثيل على شكل ملائكة، وشيء قريب من كونه ثلاثة أطباق متوازية بدت لها رهيبة. ومن مقعدها كانت تشاهد محلات تجارية وإعلانات كبيرة، حيث يمكن قراءة:

«(نوغراو)، نادي السينما، (بوررلي) للأثاث، (مارشا)، الحزب الوطني».

رأت قطعة من الزجاج إلى جانب قدمها اليسرى، على شكل مثلث، التقطتها.

كانت تشعر بفضول مرضي عندما واجهت ذلك الوجه، إنه لها. كأنها تراه للمرة الأولى. لم يثر فيها أي ذكرى. حاولت حساب عمرها.

«لي من العمر ستة عشر عاماً أو سبعة عشر». فكرّت. للمفارقة، كانت تتذكر أسماء الأشياء، كانت تعرف أن هذا مقعد، هذا عمود، وتلك نافورة، وهناك لافتة، ولكن لم تستطع أن تذكر المكان أو الوقت الذي هي فيه. عادت لتفكر، ولكن هذه المرة بصوت عالٍ: «نعم، لا بد أن لي من العمر ستة عشر أو سبعة عشر عاماً»؛ فقط لتتأكد أنها جملة بالإسبانية.

وسألت نفسها إذا ما كانت تتكلم لغة أخرى! لا شيء.

لا تتذكر شيئاً، ومع ذلك جرّبت شعوراً بالراحة، بالصفاء، والبراءة. كانت مندهشة، بالطبع، ولكن هذه الدهشة لم تسبب لها استياء. كان لديها انطباع مضلل أن وضعها أفضل من أي شيء آخر، كما لو كان في ماضيها شيء مدقع، شيء فظيع.

فوق رأسها كان لاخضرار الأشجار درجتان متمايزتان، والسماء بالكاد يمكن رؤيتها، والحمام أخذ يقترب منها، لكنها انسحبت بخيبة أمل. في الحقيقة، لم تكن تملك شيئاً لتعطيهم إياه. مر الكثير من الناس من جانب المقعد، دون أن يعيروها انتباهاً. فقط بعض الشبان نظروا إليها. كانت هي على استعداد للحوار، بل كانت تتمناه، ولكن كان يغلب على هؤلاء المارة المتقلبون التردد ويعاودون المسير. عندها ثمّة من خرج عن القاعدة. كان رجلاً في الخمسين، أنيقاً، وشعره مُسرّح على أكمل وجه، بدبوس ربطة عنق وحقيبة سوداء. شعرت أنه سيتكلم.

«هل تعرّف إلي؟» فكرت. وتملّكها خوف من أن يُدخلها ذلك الشخص مجدداً في ماضيها. فقد كانت تشعر بسعادة عارمة في نسيانها

للماضي. ولكن الرجل تقدم بكل بساطة وسأل: «هل أصابك شيء ما؟».

تأملته طويلاً. منحها وجهه الثقة. في الحقيقة كل شيء فيه كان يمنحها الثقة.

ـ «فتحت عيني قبل قليل في هذه الساحة ولا أتذكر شيئاً، لا شيء قبل ذلك». أحست أنه لم يكن هناك داعٍ لمزيد من الكلمات. انتبهت لابتسامتها عندما رأت أن للرجل أيضاً ابتسامته. مدّ لها يده. قال: «اسمي (رولدان)، (فيليكس رولدان)».

ـ «أنا لا أعرف اسمي»، قالت، ومدّت يدها.

ـ «لا يهم. لا يمكنك البقاء هنا. تعالي معي. هل تريدين ذلك؟»

بالطبع كانت تريد. نظرت إلى الحمام الذي كان يجتمع حولها وهي تنهض، وفكرت: «يا للحظ، إني طويلة». الرجل الذي يدعى (رولدان) أمسك ذراعها بحنان، واقترح عليها المشي.

ـ «إنه قريب»، قال.

«ما هو القريب؟» ولكن لم يكن يُهمها. شعرت الشابة كما لو أنها سائحة. لم يكن هناك شيء غريب عليها ولكن مع ذلك لم تستطع التعرف على شيء. ربط ذراعها الهزيلة تلقائياً بذراعه القوية. كانت بزته ناعمة، من قماش ليّن، بالتأكيد مكلف.

نظرت إلى أعلى ـ كان الرجل طويلاً ـ وابتسمت له. هو ابتسم أيضاً، ولكن هذه المرة فتح شفتيه قليلاً لتلاحظ الشابة سناً من الذهب. لم تسأل عن اسم المدينة. كان هو من أوعز لها: «مونتفيديو».

سقطت الكلمة في فراغ عميق. لا شيء. لا شيء على الإطلاق. الآن يسيران في شارع ضيق، ببلاطات منزوعة وورشات بناء. كانت الحافلات تمر من جانب الحبل وكانت تسبب أحياناً رذاذاً لمياه موحلة. مررت يديها على أحد قدميها لتنظف قطرات غامقة. عندما رأت أنها لا تلبس جوارب. تذكرت كلمة جوارب. نظرت إلى الأعلى ووجدت بعض الشرفات القديمة، بملابس معلقة ورجل ببيجامة. فقررت أنها تحب المدينة.

ـ «ها قد وصلنا»، قال الرجل المدعو (رولدان) وهو إلى جانب باب بفتحة مزدوجة. مرّت هي أولاً. في المصعد وضع الرجل يده على الطابق الخامس. لم يقل أي كلمة، ولكن نظر إليها بعيون قلقة. فردت هي بنظرة مليئة بالثقة. عندما أخرج المفتاح ليفتح باب الشقة، رأت الشابة في اليد اليمنى أنه كان يضع خاتماً إضافة إلى خاتم آخر بحجر أحمر. لم تستطع تذكر اسم الحجر الأحمر. لم يكن هناك أحد في الشقة. وعند فتح الباب، فاحت رائحة متحللة من الداخل،

فتح الرجل المدعو (رولدان) نافذة ودعاها لتجلس في أحد الكراسي. ثم أحضر كأسين، ثلج وويسكي.

تذكرت هي الكلمات ثلج وكأس. ولكن ليس كلمة «ويسكي». الجرعة الأولى من الكحول جعلتها تسعل، لكنه أعجبها.

طافت نظرات الشابة على الأثاث، الجدران، اللوحات. قررت أنه لم يكن هناك تناغم، ولكنها كانت في مزاج صافٍ. نظرت مرة أخرى إلى الرجل وأحست بالراحة، والأمان.

ـ «ليتني لا أتذكر شيئاً من الماضي». فكرت. عندها أطلق الرجل ضحكة أفزعتها.

ـ «الآن قولي لي، أيتها الحمقاء. الآن وبما أننا وحدنا وهادئون، قولي لي من أنت». عادت لتسعل وفتحت عينيها على اتساعهما.

ـ «لقد قلت لك، لا أذكر». بدا لها أن الرجل يتغير جذرياً، يبدو في كل مرة أقل جاذبية وأكثر ابتذالاً، كان ابتذالاً سمجاً، وصلافة غير منتظرة تختبئ خلف دبوس ربطة العنق أو البزة ذات القماش اللين، وبدأت الآن بالظهور.

ـ «ملكة جمال النسيان؟ حقاً؟ وماذا يعني هذا؟». لم تفهم هي شيء، ولكنها شعرت أن الخوف بدأ بالتسرب إليها، خوف شديد من هذا الحاضر السخيف كما الخوف من الماضي الغابر.

ـ «ها، ملكة جمال النسيان»، وانطلق الرجل بضحكة أخرى، «هل تعلمين أنك أصلية تماماً؟ أقسم لك أنها المرة الأولى التي يحدث معي شيء كهذا. أنت نوع جديد أم ماذا؟». اقتربت يد الرجل الذي يدعى (رولدان). كانت هي اليد نفسها التي تأبطتها بعفوية في الساحة. لكن في الحقيقة كانت يداً أخرى. ممتلئة بالشعر، قلقة، مشلولة من الرعب، انتبهت إلى أنها لا تستطيع فعل شيء. وصلت اليد إلى الرقبة وحاولت الدخول. ولكن، هناك أربعة أزرار تعيق هذه العملية. عندها انزلقت اليد إلى الأسفل وتناثرت ثلاثة أزرار. أحدهم وصل بعيداً حتى اصطدم بالثلاجة. وبينما كان الصوت مستمراً، كانا دون حركة. نهضت الشابة قافزة مستغلة هذه اللحظة غير الطوعية من الانتظار وما زال الكأس في

يدها. وانطلق نحوها الرجل المدعو (رولدان). شعرت أن الشخص يدفع بها نحو أريكة بفرش أخضر. كان يقول:

ـ «أيتها الحمقاء الخجولة، أيتها الحمقاء الخجولة». أدركت أن النفس الرهيب للشخص توقف أولاً عند عنقها، ثم في أذنها، ثم عند شفتيها. وعرفت أن تلك اليدين القويتين، المقرفتين، كانتا تحاولان نزع ملابسها.

شعرت بالاختناق، وبأنها لم تعد تستطيع أكثر من ذلك. ثم لاحظت أن أصابعها تضغط أكثر على الكأس التي كانت ممتلئة بالويسكي. وحاولت بأقصى ما تستطيع من قوة، انتفضت قليلاً، وضربت بالكأس وجه (رولدان)، دون أن تطلقه.

رجع هذا إلى الخلف، تمايل قليلاً وانزلق إلى جانب الأريكة الخضراء. تمالكت الشابة ذعرها. وقفزت إلى جسد الرجل، تركت عندها أخيراً الكأس، الذي وقع فوق السجادة، دون أن ينكسر، ركضت باتجاه الباب، فتحته وخرجت إلى الممر ونزلت بفزع طوابق الدرج الخمسة، بالطبع. استطاعت في الشارع أن تعدل من ردائها مستعينة بالزر الوحيد المتبقي. بدأت بالسير بخفة كما لو أنها تركض. بخوف، بقلق، وأيضا بحزن ودائماً تفكر: «علي أن أنسى هذا، علي أن أنسى هذا». تعرّفت إلى الساحة وتعرّفت إلى المقعد الذي كانت تجلس عليه. هو فارغ الآن، لذلك جلست. كانت إحدى الحمامات تبدو كأنها تتأملها، ولكن لم تكن هي في مزاج لترد عليها. فقط تملكتها فكرة: «علي أن أنسى، يا إلهي دعني أنسى أيضاً ما اقترفته». ألقت برأسها إلى الخلف وشعرت كأنه مغميّ عليها.

عندما فتحت الشابة عينيها، شعرت أنها تتملكها الحيرة. لا تذكر شيئاً. لا اسمها، لا عمرها، لا تفاصيلها. رأت أن تنورتها بنية اللون وأن بلوزتها بعنق مفتقد لثلاث أزرار، بلون سكّري. لم يكن لديها محفظة. ساعتها كانت تشير إلى السابعة وخمس وعشرين دقيقة. كانت جالسة في مقعد في ساحة لها أشجار، ساحة كان في منتصفها نافورة قديمة بتماثيل على شكل ملائكة وشيء كأنه ثلاث أطباق متوازية. بدت لها رهيبة.

من المقعد رأت محلات تجارية، ولافتات كبيرة. كانت تستطيع قراءة: (نوغارو)، نادي السينما، (بورلي) للأثاث، (مارشا)، الحزب الوطني. لا شيء. لا تتذكر شيئاً، مع ذلك، كان يتملكها شعور بالراحة، بالهدوء، تقريباً بالبراءة. كان لديها انطباع مضلل بأن هذا هو أفضل من أي شيء، كما لو أنها تخلف خلف ظهرها شيئاً مدقعاً، شيئاً مفزعاً. كان الناس يمرون من جانب المقعد مع أطفال، مع حقائب، مع مظلات. عندها خرج عن المألوف لهذا العرض رجل في الخمسين من عمره، أنيق، شعره مسرح على أكمل وجه، بحقيبة سوداء، دبوس ربطة عنق ولصقة بيضاء على عينه.

«هل يعرفني؟»، فكرت وتملكها الخوف من أن يعيدها ذلك الشخص إلى ماضيها مجدداً. فقد كانت تشعر بسعادة عارمة في نسيانها المريح. لكن الرجل اقترب وسأل ببساطة: «هل أصابك شيء يا آنسة؟». تأملته طويلاً. منحها وجه الشخص الثقة. في الواقع كان كل شيء يمنحها الثقة. رأت أن الرجل مد لها يده وسمعته يقول:

ـ «اسمي رولدان. فيليكس رولدان». بعد كل شيء، إن أقل ما يهم هو الاسم. وهكذا نهضت بعفوية وربطت ذراعها بتلك الذراع القوية.

صورة ومثيلها

كانت آخر نملة في القافلة، ولم يكن بإمكانها أن تسلك طريق رفاقها.

كانت هناك قطعة سكر قد انزلقت من أعلى وانفجرت لتصبح مجموعة من القطع. اعترضت طريقها إحدى هذه القطع. تجمدّت النملة للحظة فوق الورقة ذات اللون الكريمي. ثم، بأقدامها الأمامية جسّت قطعة السكر. تراجعت، ثم توقفت، دارت حول نفسها باتجاه عقارب الساعة مرتكزة على أقدامها الخلفية. فقط عندها اقتربت مجدداً.

الأقدام الأمامية امتدت في محاولة لإزاحة قطعة السكر، لكنها فشلت. مع ذلك، فإن الحركة السريعة جعلت قطعة السكر في موقع أفضل للتحميل.

هجمت النملة هذه المرة على هدفها جانبياً ورفعتها على رأسها. للحظة بدت أنها تتمايل، لكنها عاودت رحلتها، ولكن أبطأ بكثير مما كانت عليه. أصبح رفاقها بعيدين، خارج الورقة. توقفت النملة، بالضبط عند نقطة السطح حيث تغير اللون. داست الأقدام الستة (N) غامقة. وبعد وقفة طويلة، انتهت بتخطيها، أصبح السطح واضحاً من جديد.

انزلقت قطعة السكر فجأة فوق الورقة وانقسمت إلى قطعتين. عندها

قامت النملة بجولة شاملة على القطعتين، واختارت الأكبر. حملتها وانطلقت.

في الطريق، ظهر عقب لفافة تبغ مسحوق. استدارت حوله ببطء، وعندما ظهرت من الجانب الآخر، كانت الأرضية قد عادت لتصبح مظلمة لأن النملة تحركت في هذه اللحظة لتجد نفسها فوق حرف (A). كان هناك تيار خفيف من الهواء، كأن شخصاً قد نفخ. فتدحرجت النملة وقطعة السكر. الآن تفتت قطعة السكر بالكامل. وقعت النملة على أقدامها وأخذت تدور حول نفسها بشكل محموم. لتهدأ بعد ذلك. اتجهت إلى إحدى قطع السكر المقسومة سابقاً، لكنها لم تحملها. عندما عاودت مسيرتها، لم تُضع الطريق. ومرّت بسرعة فوق (D) مظلمة، وعندما عادت إلى المنطقة الواضحة أوقفتها عقبة جديدة. كان قطعة من شيء ما، ربما عصاً أكبر منها بثلاث مرات. تراجعت، تقدمت، والتفت على العصا، وتوقفت عندها بضع ثوانٍ. ثم بدأت بمهمة التحميل. انزلقت العصا مرتين، لكنها بقيت أخيراً ثابتة كصارية مائلة. وعند المرور في منطقة الـ (A) المظلمة الثانية. كان مرور النملة مظفراً تقريباً. ومع ذلك، لم تكن قد تقدمت أكثر من سنتيمترين من سطح الورقة الواضحة، عندما حرك أحد ما أو شيء ما تلك الورقة لتلتف النملة حول نفسها تقريباً. واستطاعت أن تعاود الحركة عندما وصلت إلى خشبة الطابق. كانت العصا على بعد خمسة سنتيمترات، واندفعت النملة باتجاهها، هذه المرة بشكل مقصود كأنها خطوة معدّة. وهكذا وصلت إلى هدفها، ولكن عندما مدت أقدامها الأمامية عادت مجدداً نفخة الهواء وابتعدت العصا عنها نحو عشرة سنتيمترات. ليقع بين الشقوق التي كانت تفصل بين ألواح الأرضية. أحد الأطراف، مع ذلك، كان

باتجاه الأعلى. مما يعني وضعية أسهل للنملة التي التفت بُغية محاولة العملية من الزاوية الأسهل. وعندما مضت نصف دقيقة، كانت العملية قد تمت بنجاح. الحملة مرة أخرى مشحونة، وكانت هذه المرة في وضعية أفقية صارمة. عاودت النملة التحرك، دون الانحراف عن مسيرها أبداً.

النملات الأخريات، كُنّ قد اختفين في حفرة غير مرئية. تقدمت النملة فوق الخشب أبطأ مما كانت عليه فوق الورق. لتواجه بعدها عقدة وعرة جداً في اللوح مما كان يعني تأخرها لأكثر من دقيقة. كانت العصا على وشك الوقوع، ولكن حركة لجسم النملة أكّدت توازنها من جديد. اثنين من السنتيمترات ثم هدرت ضربة. ضربة على ما يبدو على السطح، وكما الأخريات، فهذا اللوح اهتز وقفزت النملة بشكل لا إرادي ففقدت شحنتها. علقت العصا بين اللوح اللاحق. وكانت المهمة التالية هي عبور فتحة كانت عميقة للغاية. التصقت النملة بالحافة، تقدمت بإيجاز بحركة مليئة بالإنذار، ولكن مع ذلك سارعت بحركة عجولة من سنتيمتر ونصف في تلك الهاوية. استغرقت عدة ثوانٍ وهي تحاول التوازن، متسلقة الجانب المقابل للحفرة لتظهر على سطح اللوح التالي. هناك حيث كانت العصا. بقيت النملة بعض الوقت إلى جانبها، دون أي حركة باستثناء رعشات في الأقدام الأمامية. ثم قامت بعملية الحمل الخامسة. كانت العصا في وضعية أفقية، رغم أنها كانت مائلة بعض الشيء مقارنة مع جسم النملة. مما جعل هذه تقوم بحركة مفاجئة مهتزة لتصبح الحمولة في موضع أفضل على بعد نصف متر من هدفها. وتوجهت النملة باتجاه الطريق القديم، الذي كان هذه المساحة

بالمصادفة كانت تتعلق بالطبقة. الآن المسير كان أسرع، ويبدو أن العصا لم تكن تواجه أي خطر بالسقوط. وعلى بعد سنتيمترين من هدفها، توقفت النملة، منتبهة مرة أخرى. من أعلى، عندها، ظهر إبهام، لإصبع إنساني عريض ليسحق بإتقان الحمولة والنملة.

قصة قصيرة

نفق القطار هذا الذي أقفل منذ سنوات، كان دائماً للأطفال «ليسوا اطفالاً كثيرا»، شيئاً سحرياً حيث لم يكن هناك أي تفسير للكبار حول ما يجري. دائماً كان ثمة من يظهر ليقول إنه رأى حصاناً أبيض من دون فارس يخرج من النفق، أو انه رأى مع حفيف الريح، منديل باهت يحلق لبرهة كسقف متحرك ثم يختفي.

في كلا فتحتي المدخل كان هناك قطع صلبة من الحديد والخشب متعفنة تمنع دخول أي فضولي حتى الأشباح.

مرّ الزمن وأولئك الأطفال الذين واكبوا تلك القصة أصبحوا آباءً ولكن أنجبوا في الوقت نفسه أبناء تأثروا بأفكار آبائهم عندما كانوا صغاراً. وذات يوم عمت الشائعات بأن خطي القطار سيعودان للعمل من جديد وصار الناس ينظرون إلى النفق كما لو أنه شخص من العائلة قد عاد. بعد ستة أشهر من الشائعة الأولى أزيلت قضبان الحديد والخشب، لكن لم يظهر شيء جديد.

هل تذكرون (ماركيتوس)، ابن السيد (ماركوس)، و(لوكاس جونيور)، ابن السيد (لوكاس)؟ فالنفق كان بالنسبة لكليهما محور جدالهما، ورغم أنهما الآن تجاوزا العشرين، إلا أنهما (مازالا بين المزح والجد) متعلقين بقصص النفق القديمة.

ـ ألا ترى أنه حتى الآن، رغم أنه مفتوح، فلم يتجرأ أحد أن يدخل في هذا الشق الكبير؟

ـ أنا سأتجرأ ـ قال (ماركوس)، بسلوك أكثر بطولية مما كان قد أعلن عنه. انطلاقاً من هذه اللحظة، شعر أنه عبد لوعده.

لوكاس جونيور الذي كان أقل خوفاً، رافقه حتى البداية (أو النهاية، من يعرف ما هو الاتجاه الصحيح).

ودعه ماركيتوس بابتسامة قلقة.

بعد خمسة عشر أو عشرين متراً من بداية المسير، رأى أنه مضطر لإشعال مصباح قوي. بين قضبان السكة كانت الفئران تتحرك، وتتوقف لتتفحص بعضها وتتابع طريقها بعد ذلك.

أخيراً ظهر شكل بشري، بدا أنه حضر للقائه بمصباح يعمل بالنفط.

ـ مرحباً، قال (ماركيتوس).

ـ اسمي (سيرفاندو) ـ قال رجل المصباح. يقولون إنني مجرم؛ ولهذا أنا هارب. اتهموني أنني ضربت امرأة مسنة بينما في الحقيقة المرأة العجوز هي من ضربتني. وبعصىً. انظر كيف أصبحت ذراعي.

الرجل لم ينتظر ولم يطالب بجواب وتابع سيره. خلال فترة، فكر (ماركيتوس)، سأعطي المفاجأة لـ (لوكاس جونيور).

اللقاء التالي كان مع امرأة مرتدية رداءً بني.

ـ أنا (ماريسا).

تشرفنا. زوجي، أو أفضل القول رجلي، ذهب مع عشيقته وولديَّ

الاثنين. أعلم أنه انتحر عندما فعل ذلك. لكنه مخطئ تماماً. أنا سأستمر حتى النهاية. هل كنت تريد حضرتك أن تنتحر؟ أم لا؟

ـ لا يا سيدتي. أنا أيضا من الذين يستمرون.

حيته بحرارة مصطنعة شيئاً ما وابتعدت وهي تغني.

خلال طريق طويل، وكما لم يظهر أحد، تابع ماركيتوس سيره مع اتجاه السكة.

ثم بعد ذلك حضر كلب بعيون مرتقبة كانت تبدوان كعيون قطة. مر بجانبه، مرتعدا من الخوف، دون أن ينبح ولا أن يحرك ذنبه. بدون شك، صاحبه كان الرجل الذي يتبعه على بعد عشرين مترا.

ـ لا تخف من الكلب. في الليل يعطي شكلاً شريراً لكنه في النهار هو نعم مخيف.

ـ ولماذا لا تضعه في امان؟

ـ انه ضروري ليدافع عني. لقد أنقذ حياتي في حالتين.

نظر الرجل الواصل حديثا بتمعن إلى ماركيتوس ثم تجرأ أن يسال:

ـ حضرتك تعيش في النفق؟

ـ لا. حاليا. لا.

ـ حضرتك تمشي بدون كلب، بدون اكتراث، فقط اقول لك: احترس.

ـ لصوص؟

ـ أيضاً لصوص.

ـ جرذان؟

ـ أيضاً جرذان.

لم يقل أكثر من هذا، وحتى انه لم يستأذن بالذهاب، وابتعد. كان قد عاد الكلب ادراجه وكما ولو لإنقاذه. وأنقذه.

بقي ماركيتوس وقتا جيدا، ثابتا وصامتا. كادت شابة أن تصطدم به. انتهى صراخها بتنهيدة.

ـ ما الذي تفعله هنا؟ سألت هي، دون أن تخرج من المفاجأة الأولى.

ـ انا هنا لا أكثر. وحضرتك؟

ـ لقد دخلت هنا لأفكر، لكني لا أستطيع. تسرب المياه والجرذان يشتتوا أفكاري. انا خائفة من أن أبقي نائمة.

ـ ولم لا تعودي؟

ـ هذا سيعني انني هزمت.

ـ هل تريدين أن ارافقك؟

ـ لا؟

ـ هل انت بحاجة لشيء؟

ـ لا شيء.

ـ سأشعر بالذنب إذا ما تركتك هنا وحيدة، بينما انا اتابع المسير.

ـ لا تقلقي. المميزين، كحضرتك وأنا، لا يحصل لنا شيء ابدا.

ـ هل بإمكاني أن اقبلك قبلة وداع؟

ـ لا، لا تستطيع.

سار تقريبا لمدة ساعة دون أن يلتقي بأحد. شعر بالإنهاك. كانت تؤلمه خاصرتاه، أيضاً كل جسده.

كانت قد بدأت تمطر عندما وصل لنهاية النفق. التجأ تحت مظلة، مدهوشاً. توقفت فجأة دراجة هناك وثمة وجه مألوف أطل من أسفل حائرا.

لقد كان فيرنانديز، صديق قديم لوالده. أشار راكب الدراجة له بإشارة وصرخ فيه:

ـ سيد ماركوس! ما الذي تفعله هنا، وحيدا؟

ـ ها، فيرنانديز. لا تخطئ. انا لست السيد ماركوس، انا ماركيتوس.

لا تلعب دور الولد، تبا. لم ارى أبداً ماركيتوس بكل هذا الشيب. ام أنك نسيت باننا كنا اصدقاء في صف ومقعد واحد؟

ـ انا لست السيد ماركوس. انا ماركيتوس.

ـ على أية حال، ماركيتوس مع زهايمر.

ـ رجاءا فيرنانديز، لا تسخر. لقد خرجت للتو من النفق. طفته من اوله إلى اخره.

ـ إن هذا النفق يصيب الجميع بالجنون. عليهم أن يقفلوه مدى الحياة.

ـ أنا لست السيد ماركوس. أنا ماركيتوس. سأذهب الان للبحث عن ابي.

ـ إنك لا تصلح. منذ كنت طفلا كنت مهرج. خذ، أترك لك مظلتي.

شغل الدراجة وفجأة اختفت خلف الاشجار. بينما هذا، في العمق، كان يسمع فقط صوت متكرر، كل مرة أكثر حدة:

ـ انا ماركيتوس! انا ماركيتوس!

أخيراً، عندما ظهر من النفق حصان أبيض، بدون فارس، وتوقف أمام مدخل النفق، دعى للصمت ولم يكن له من بد سوى النظر ليديه. عند هذه النقطة، كان من المستحيل انكاره: لقد كانت له يدا رجل عجوز.

هذا

لقد حقق مع السجين ثلاث مرات في الأسبوع ليتبين «من علّمه هذا»، كان هو يجيب بصمت سمح. وعندها كان الملازم المناوب يدفع «البيكانا» الرهيبة إلى خصيتيه.

ذات يوم فاجأهم السجين المهم فأجاب: «ماركس. نعم. الآن أتذكر، إنه ماركس».

دُهش الملازم لكنه بقي يقظاً، وانتفض سائلاً: «آه. و(ماركس) هذا من علمّه؟ أضاف السجين، ـ وقد أصبح الآن مستعداً لتقديم تنازلات ـ : «لست متأكداً، ولكن أعتقد أنه كان (هيغل)».

ابتسم الملازم، راضياً، والسجين، ـ ربما لقلّة مهنيته ـ ، أخذ يفكر: «آمل ألا يكون العجوز قد غادر (ألمانيا)».

ليلة القبيحين

١.

كلانا قبيح. ولم نكن قبيحين عاديين.

هي لديها عظام الوجنة غارقة. منذ كانت في الثامنة من عمرها، عندما أجروا لها عملية.

ندبتي البشعة إلى جانب فمي ناتجة عن حرق شديد، حدث في بدايات مراهقتي. ولا يمكن القول إن لدينا عيوناً لطيفة، فهذا الذي يمكن أن يبرر أحياناً للبشعين تمسكهم بأحبال الجمال. لا، أبداً. فعيناها كما عيناي، عيون مثيرة للشفقة عاكسة فقط بعض أو لا شيء من الاستسلام الذي نواجه به مصيبتنا. ربما هذا ما وحدّنا. ربما كلمة واحدة ليست هي الأنسب. إنما ما أقصده هو الكراهية الشرسة التي يشعرها كل منا تجاه وجهه.

تعارفنا عند مدخل السينما، كنا واقفين في الطابور لنشاهد في الشاشة اثنين جميلين كأي اثنين. هناك حيث تفحّص كل منا الآخر للمرة الأولى دون استلطاف وإنما بتضامن مظلم، هناك حيث سجلنا، منذ النظرة الأولى، عطف نظراتنا المتضامنة.

كان الجميع في الطابور أزواجاً حقيقيين: أزواج، عشاق، أجداد،

ومن يعلم، جميعهم ـ ممسكين بأيدي بعضهم ـ كل منهم كان له نصفه الآخر. فقط هي وأنا كانت أيدينا لوحدها ومتقلصة.

نظرنا إلى قبحنا بعناية، بغطرسة، ودون فضول. طفت في تشققات وجنتها بالسهولة التي كانت تمنحها لي وجنتي المنكمشة. هي لم تخجل.

أعجبني أنها كانت قوية، أعجبني أنها أجابت على تدقيقي بنظرة متفحصة إلى المنطقة المسطحة اللامعة، دون ذقن بسبب حرق قديم.

أخيراً دخلنا. جلسنا متقابلين. هي لم تستطع النظر إلي، لكني أنا والذي ما زلت في الظلام، رقبتها ذات الشعر الأشقر، أذنها الرطبة المصقولة جيداً. كانت الأذن التي تتبع الجانب الطبيعي.

خلال ساعة وأربعين دقيقة أعجبنا بجمال كل من البطل القاسي والبطلة الحنونة. على الأقل كنت دائماً قادراً على الإعجاب بما هو جميل. اللوم أحتفظ به لوجهي، وأحياناً للرب. أيضاً لوجوه بشعين آخرين، لفزاعات أخرى، ربما كان علي أن أشعر بالشفقة، لكن لا أستطيع. في الحقيقة هم شيء كما لو كانوا مرايا. أتساءل أحياناً ماذا كان سيكون الحظ الذي سيواجهه (نارثيس) لو كان لديه وجنة غارقة، أو إذا ما كان الحمض قد حرق له وجنته، أو إذا ما كان ينقصه نصف أنف، أو لو كان لديه ندبة في الجبهة.

انتظرتها عند مخرج السينما. مشيت بعض الأمتار إلى جانبها، ثم كلمتها.

عندما توقفت ونظرت إلي، تولد لدي انطباع أنها كانت مترددة. دعوتها لنتحدث قليلاً في مقهى، ووافقت.

كان المقهى ممتلئاً، ولكن في هذه اللحظة كانت قد فرغت طاولة. وأثناء مرورنا بين الناس، أحسست في ظهري بإشارات، وإيماءات الدهشة. فأنا لدي خبرة خاصة لالتقاط هذا الفضول المريض، هذا التعذيب اللا واعي ممن لهم وجوه عادية، متناسقة بأعجوبة. لكن هذه المرة لم تكن خبرة حدسي ضرورية، حيث أن سمعي التقط همساً، سعلات مفتعلة. وجه فظيع ومعزول لا بد أن يكون له اهتمام ما، لكن حالتي بشاعة معاً تشكل في حد ذاتها استعراضاً كبيراً.

جلسنا، وطلبنا اثنين من البوظة، وهي كان لديها شجاعة ـ هذا أيضا أعجبني ـ لتخرج من حقيبتها مرآة وتصلح شعرها. شعرها الجميل.

ـ «ما الذي تفكرين به»، سألت. أعادت المرآة وابتسمت. فتغير شكل الحفرة التي في خدها.

ـ «مكان مشترك»، قالت.

تحدثنا مطولاً. وكان علينا بعد ساعة ونصف الساعة أن نطلب فنجانين من القهوة لنبرر طول المدة. أدركت فجأة أننا، أنا وهي على حد سواء كنا نتكلم بصراحة جارحة مهددة بتحويلها إلى شيء يعادل النفاق تقريباً.

قررت أن أذهب إلى النهاية.

ـ «إنك تشعرين أنك مستبعدة من العالم، أليس كذلك؟»

ـ «نعم»، قالت، وهي ما زالت تنظر إلي.

ـ «أنت تعجبين بالجمال المألوف. تودين أن يكون لك وجه متوازن كتلك الفتاة على يمينك، رغم أنك ذكية، وهي، إذا حكمنا عليها من ضحكتها، تبدو غبية بشكل لا يغتفر».

ـ «نعم».

للمرة الأولى لم تستطع أن أطيل فيها النظر.

ـ «أنا أيضاً أرغب بهذا. ولكن هناك احتمال، هل تعلمين؟، أن نصل أنت وأنا إلى شيء».

ـ «شيء مثل ماذا؟»

ـ «كأن نحب بعضنا، حباً، أو ميولاً...، سمّه كما شئت، لكن هناك إمكانية».

فركت هي حاجبها. لم تكن تريد أن تمنح أملاً.

ـ «عديني أن لا تتعاملي معي كأحمق».

ـ «أعدك».

ـ «إمكانية أن ندفع بأنفسنا في الليل. في ليلة كاملة. ظلمة كاملة. هل تفهمينني؟»

ـ «لا».

ـ «عليك أن تفهميني! ظلمة كاملة. حيث لا تستطيعين رؤيتي، حيث لا أستطيع أن أراك. إن جسدك جميل، ألم تعرفي هذا؟»

شعرت هي بالخجل، وتشقق الوجنة عاد ليصبح على حين غرة إلى قرمزي.

ـ «إنني أعيش وحيداً، في شقة، وهي قريبة».

رفعت رأسها ونظرت إلى الآن كما لو أنها تسألني، تستعلم عني، محاولة عبثاً الوصول لتحليل ما.

ـ «لنذهب»، قالت.

.٢

لم أطفئ النور فحسب وإنما أغلقت الستائر. تنفست هي بجانبي. لم يكن تنفساً شاقاً. لم ترد أن أساعدها بنزع ملابسها.

أنا لم أشاهد شيئاً، لا شيء. ولكني استطعت أن أنتبه أنها كانت ثابتة، منتظرة. مددت إحدى يداي بحذر، حتى وجدت صدرها. نقلت لمستي لي محفزاً، خارقاً. وهكذا رأيت بطنها. يداها أيضاً رأتني.

في تلك اللحظة فهمت أنه كان علي أن أنطلق وأخلصها من تلك الكذبة التي صنعتها أنا بنفسي. أو كنت أحاول صنعها. لقد كان مثل البرق. لم نكن هكذا. لم نكن ذلك. اضطررت إلى اللجوء إلى كل احتياطات الشجاعة لدي، لكني فعلتها. ارتفعت يدي ببطء نحو وجهها، لتجد الأخدود المرعب، وبدأت بلمسة بطيئة ومقنعة.

في الحقيقة كانت أصابعي في البدء مرتعشة، ثم بعد ذلك واثقة تدريجياً، لتعبر في كثير من المرات فوق دموعها.

عندها، عندما حصل أقل مما كنت أتوقعه، وصلت يدها إلى وجهي، واستعرضت الندبة والجلد السلس، تلك الجزيرة من دون ذقن لعلامة حادثة.

بكينا حتى الفجر. بائسين، سعيدين. ثم نهضت بعد ذلك وفتحت الستارة المزدوجة.

معزوفة الموساك

ـ «إلى الجحيم. اللعنة». قالها بحرفية. فظاعة. على الرغم من أن هناك طرقاً كثيرة أخرى أوضح لقولها، ألا تظن؟ ولكن ماذا عن الجحيم؟ كان جالساً، كما كان دائماً، في هذا المقعد.

كان يكتب على الآلة الكاتبة، تعليقاً ما حول كرة السلة بالتأكيد. دائماً في آخر البطولة يُعد تقريراً شاملاً عن الموسم. لا أعرف لماذا. على أية حال، يعطي الرأي نفسه دائماً: المسؤولية لا تقع على عاتق اللاعبين، وإنما على المدرب.

قال: «إلى الجحيم».

وأنا سألته: «ماذا قلت يا (أوريبي)؟» ليس لأني لم أفهم، وإنما بدا لي غريباً ما فهمت. عندما، نظر إلي، أو بالأحرى، حدق بي من فوق رأسي في هذا المكان، ولفظ الباقي: «اللعنة». بدءاً من هذه اللحظة، لم يعد أحد يستطيع إيقافه.

ـ «إلى الجحيم، اللعنة، إلى الجحيم، اللعنة». اتصلت بـ (برتي) وهو ساعدني. بمساعدة الاثنين استطعنا أن نأخذه إلى المستشفى. لم يقاوم. تنفس، وحتى كان يرتعش قليلاً. كنت أقول له: «لكن يا (أوريبي) العجوز، ماذا حصل لك؟» وهو بحدة: «إلى الجحيم. اللعنة».

بعد خمسة عشر عاماً من العمل معاً ـ حسناً، جيران على الأقل، هو في قسم الرياضة، أنا قسم الأحداث ـ شيء كهذا يدهش. لاسيما أن (أوريبي) شخص لطيف، منفتح، حيث يحكي دائماً عن أصغر التفاصيل في حياته. أعتقد أنني أعرف كل زوايا بيته، علماً أنني لم أكن هناك أبداً. أعرفه بالتفصيل، من طريقة وصفه له. أستطيع أن أرسم مخططاً له إذا أردت. أستطيع أن أقول لك ماذا تضع امرأته في كل درج من خزانتها، أين تترك المحفظة، حقيبة المدرسة، وما هي ألوان فرش الأسنان، وأين يخبئ كتب الماركسية. هل تعرفون أنه بلشفي؟ خمسة عشر عاماً وأنا أعرفه. وفجأة يحصل هذا.

أؤكد أنها ضربة لنا جميعاً. عندما ذكرنا هذا الأمر لـ (فاريلا)، أصبح شاحباً وذهب ليتقيأ.

فتاة الهاتف، (لاوريتا)، امتلأت عيناها بالدموع. وهذه الليلة لم أضع شيئاً في فمي. باستطاعتكم أن تقولوا لي: ليست هذه المرة الأولى التي يمرض فيها زميل في العمل. طبعاً لا. هذا يحدث كل يوم. اليوم زكام، غداً قرحة، بعده كلاوي، ثم سرطان. فواحدنا مستعد لأشياء كهذه. أما أن يتوقف شخص فجأة عن الكتابة، ينظر إلى التقويم ويبدأ بالقول: «إلى الجحيم، اللعنة». ولا يتوقف أبداً، فهذا شيء لم يحدث أبداً، على الأقل حسب علمي.

الآن انتبه، هل تعلم بماذا يعلل (ريبوكا) سبب هذه الصدمة؟ إلى معزوفة «الموساك». تباً. هراء آخر. بل أكثر من ذلك حماقة. مستحيل. (ريكوبا) يقول إنه هو أيضاً يجن جنونه من «الموساك». يقول (ريكوبا) أنه لحن متواصل، ليس بالقريب ولا بالبعيد، إنها مقطوعة لا تدعه

يعمل؛ لأنه يشعر أنها مخدرة، منوم شديد الغرابة، ليس هدفه تحديداً تنويم جسمك وإنما امتصاص الصدمات العقلية، القدرة على التحرر، الدعوة إلى الحرية، ما أدراني. إن لديه خطاباً جاهزاً دائماً حول الموضوع. أنا أعتقد أنها غباء شديد.

سأقول لك أكثر: أفضّل ألف مرة أن أعمل بينما تصدح «الموساك». إنها ناعمة. وحتى العنيفة منها، كما مثلاً «الرابوديا» الهنغارية أو «البولونيسا»، فالعنف محرّم في «الموساك»، إضافة إلى أن هناك الكثير من الكمنجات، لتصبح كأنها «بوليرو»، وهذا له أثر ترياقي، تهدأ عند سماعه.

انظر، هناك أيام أصل فيها إلى الجريدة ورأسي مليء بالمشكلات، أمور مالية، نقاشات مع زوجتي، قلق عن درجات المدرسة السيئة للطفلة، آخر الإشعارات للبنك، ورغم ذلك أجلس أمام المكتب، وخلال خمس دقائق من الاستماع لهذه الموسيقى التي تدخل إليك بألحانها العذبة، أحياناً دبقة بعض الشيء، أعترف، لكن عامة، هي غاية في اللطف، بعد خمس دقائق أحس أني قريب إلى السعادة، ناسياً المشكلات، وأعمل، أعمل، أعمل كآلة، لا أكثر ولا أقل. عموماً، الأفضل ألا تفكر كثيراً. إن الجريمة هي دائماً جريمة. للعاطفيين، مثلاً، لدي أسلوب خاص. فأنا لا أتعامل مع أماكن شائعة ولا مصطلحات مستهلكة. لا أستعمل جسد الجريمة ولا أعود إلى مكان الجريمة ولا مسؤولين في السلطة، ولا بدافع شعور من الغيرة. لا شيء من هذا. أنا أتعامل مع استعارات. لا أضع الفعل بإيجاز، وإنما الصورة التي تطرأ. أعطيك مثالاً. إذا طعن شخص آخر خمس طعنات، فأنا لا أكتب كأي

كاتب آخر: طعن الشخص خمس طعنات. فأنا أكتب: «ذلك الشخص سدد له ثلاث طعنات».

هل تدرك الفرق؟ ليس فقط أضيف لها جمالية وصفية وإنما أيضاً أقلل اثنتين من الطعنات، لأنه، مع غرابة الأمر، تصبح هكذا أكثر مأساوية، وأكثر إنسانية. شخص يوجه خمس طعنات إنه شخص سادي، وحشي، ولكن شخص يوجه ثلاث طعنات، فإن لديه حدود، إنه شخص يشعر بوخز الضمير.

هل انتبهت إلى الأسلوب؟ بمعنى أن لدي أسلوبي الخاص والقارئ يقدّر ذلك. وفي هذا المجال «الموساك» تساعدني. ولقد تعودت كثيراً على وجودها، فعندما ولأي سبب لا تعمل، يتأثر أسلوبي، يختلف، يظهر دون استعارات.

هل انتبهت؟ أنا أقول لك أن حالة (أوريبي) هي أمر واضح. إنه مجنون، ليس لدي شك في ذلك. ولكن ما الذي دفعه إلى الجنون؟ ماذا تريد مني أن أقول لك؟

لكنني أعتقد أن جنونه بدأ مع بداية قراءته الكتب الماركسية. لأنه قبل ذلك، قبل إصراره على «إلى الجحيم، اللعنة» بكثير، كان (أوريبي) يتغير بشكل مضطرد. حينها لم أهتم بذلك، ولكن الآن بدأت أفكر. مثلاً عندما «فيلما» كاتبة الصفحة الاجتماعية، كانت تحرر أي فقرة من (الالتزام) حول أي احتفال خيري، كان هو يصفّر إلى الداخل ويقول: «أنا لست نصيراً للإحسان وإنما للعدالة الاجتماعية». كان (ايتوربيدي) يناديه بمزاح: «اللعنة على هذا التمسك بهكذا عدالة اجتماعية». استمع. استمع. تبدأ الآن «الموساك». اليوم... أترى...! إنها رائعة! يا لها من

كمنجات. اللعنة. يا لهذه الكمنجات. إنه لمن الجنون التهجم على الإحسان.

اليوم «الموساك» أكثر هدوءاً من أي مرة. يجب أن تكون تكريماً لك.

تأمل هذا الإيقاع. كيف يمكن لهذه الموسيقى أن تسبب انهياره! اسمع هذا الكلارينيت. إنه قسم ليل ونهار، أتذكر؟ رغم أنني أفكر أنه لا يهمني التدقيق في المقطع أولاً. المهم أن يصرح. ويهدئ. ألا تهدئك؟ طبعاً كوضوح الماء، أن الماركسية هي التي جعلته مجنوناً.

في مرة أخرى قال لي أن الرياضة هي عبارة عن مخدر يقدمونها للشعب حتى لا يفكر في أشياء أهم.

هل تعتقد أن كرة القدم هي مخدر؟ اسمع هذا البوق. هكذا، ممتصة للصدمات، كما لو أنها تطن في الدماغ. انظر، هنا تحديداً، حيث لدي الطاحونة. ماذا تريد، أنا مدمن على «الموساك» ولا أخجل من هذا. أنا متعصب لـ «الموساك». نعم سيدي. اسمع هذا الغيتار الالكتروني. رائع. أليس كذلك؟ ولكن ماذا يهم إن كانت إلكترونية أم لا.

متعصب للموساك. أنت لا؟ أنت لست متعصباً لها؟ اسمع هذا الصوت. هل تود أن أقول لك شيئاً؟ اذهب إلى الجحيم. هذا هو: إلى الجحيم، اللعنة. إلى الجحيم، اللعنة. إلى الجحيم، اللعنة. إلى الجحيم، اللعنة.

غداء وشكوك

توقف الرجل أمام واجهة الزجاج، ولكن اهتمامه لم يكن موجهاً نحو الدمية السعيدة وإنما نحو نفسه المعكوسة في الزجاج. عدّل ربطة عنقه، وهندامه. وفجأة، رأى صورة المرأة إلى جانب انعكاسه.

ـ «مرحباً، ماتيلدا». قال واستدار.

ابتسمت له المرأة ومدّت يدها باتجاهه.

ـ «لم أكن أعرف أن الرجال يهتمون بأنفسهم».

ابتسم، مظهراً أسنانه.

ـ «لكن في هذا الوقت لا بد أن تكون في العمل». قالت.

ـ «كان عليّ ذلك، لكنني خرجت في مهمة». وجّه لها نظرة اعتراف جادة.

ـ «إضافة إلى أنني كنت متأكداً تقريباً من أنك ستمرين من هنا».

ـ «لقد التقينا مصادفة. فأنا لا أسلك هذا الطريق. أصبحت أهبط عادة في محطة (كونفينثيون)».

ابتعدا عن الواجهة ومشيا معاً. عند الوصول إلى الزاوية، انتظرا الضوء الأخضر. ثم عبرا الشارع.

ـ «هل لديك بعض الوقت؟» سألها.

ـ «نعم».

ـ «إذن أطلب منك تناول الفطور معي، أم أنك سترفضين هذه المرة أيضاً؟»

ـ «أن تطلب مني. بالطبع... لا أعرف إذا ما كان على ما يرام».

لم يجبها. مشيا في شارع كولونيا وتوقفا أمام مطعم. تفحصتِ اللائحة، بانتباه أكثر مما تستحق.

ـ «هنا يقدمون أشياء لذيذة». قال.

دخلا، هناك في العمق كانت طاولة فارغة. ساعدها في نزع معطفها.

اقترب النادل بعد تفحصهما عدة دقائق. طلبا لحماً مطبوخاً، ولحماً مشوياً مع البطاطا المقلية.

ـ «ما كنت تريدين قوله، أنك لا تعرفين إذا ما كان على ما يرام؟»

ـ «هراء. هذا إنك متزوج وما أدراني».

ـ «آه».

وضعت زبدة على نصف رغيف من الخبز الفرنسي. كانت يدها اليمنى ملطخة ببقعة من الحبر.

ـ «أنت وأنا لم نتحدث أبداً بصراحة». قال.

ـ «أبداً. إنه صعب. مع ذلك، حدثنا بعضنا كثيراً بالأشياء نفسها».

ـ «ألا تعتقدين أن الوقت قد حان للتحدث بأشياء أخرى؟ أو بالأشياء نفسها، لكن دون أن نلجأ للخداع؟»

مرّت امرأة باتجاه آخر الصالة وسلّمت. عضّ هو على شفتيه.

ـ «صديقة لزوجتك؟» سألته.

ـ «نعم».

ـ «بودي لو تتذمر».

اختار قطعة من البسكويت وقصمها، بقبضة مقفلة.

ـ «أحب أن أعرفها». قالت.

ـ «من...؟ هذه التي مرّت؟»

ـ «لا...، زوجتك».

ابتسم. وللمرة الأولى، استرخت عضلات وجهه.

ـ «إن أماندا طيبة. ليست بجمالك، طبعاً».

ـ «لا تكن منافقاً. فأنا كما أنا».

ـ «أنا أيضاً أعرف كيف أنت».

أحضر النادل اللحم. نظر لكليهما بشكل تحقيقي وداعب المنديل.

ـ «شكراً». قال. وابتعد النادل.

ـ «كيف هو الزواج؟» سألت.

سعل هو على مضض، ولكن لم يقل شيئاً. ثم نظرت في يديه.

ـ «كان علي أن أغسلهما. انظر كم هي وسخة..».

تحركت يده فوق مفرش الطاولة حتى محت البقعة.

ـ «لن يكون هناك المزيد».

كانت تدقق النظر في الطبق وعندها سحب يده.

ـ «كنت دائماً أفكر أنني معك سأشعر بالراحة، وأن بإمكاني الحديث ببساطة، دون زيف، نوع من أشكال الصورة المزخرفة» قالت.

ـ «وهل تعطين صورة مزيفة عنك لأشخاص آخرين؟»

ـ «أعتقد، نعم».

ـ «حسناً، هذا يصب في صالحي، أليس كذلك؟»

ـ «أعتقد، نعم».

بقي هو مع الشوكة في منتصف الطريق. ثم عضّ قطعة اللحم.

ـ «أنا أفضل الصورة دون رتوش».

ـ «لأي شيء؟»

ـ يقول «لأي شيء؟» كما لو قال «لماذا؟»، بالنغمة البريئة نفسها. ولم تجب هي بشيء. أضاف هو: «حسناً، لأراك... مع هذه الرتوش لن تكوني أنت».

ـ «وهل هذا يهم؟»

ـ «من الممكن أن يهم».

جمع النادل الأطباق، ببطء. طلب هو مياهاً غازية «بالليمون؟» قال.

ـ «حسناً. بالليمون».

ـ «هل تحبها»؟ سألت «لاماندا؟»

ـ «نعم».

ـ «طبيعي. إنها تسع سنوات».

ـ «لا تكوني مبتذلة. ما شأن الأمر بالسنوات؟»

ـ «حسناً، يبدو أنك أنت أيضاً تعتقد أن الحب يصبح عادة مع مرور السنين».

ـ «أليس كذلك؟»

ـ «إنه كذلك. ولكن هذا لا يعني أنها نقطة ضد، كما تعتقدين أنت».

صبّت المياه المعدنية. ثم أعطتها له.

ـ «ما الذي تعرفه عما أفكر أنا؟ الرجال دائماً يعتقدون أنهم نفسيون، ودائماً يبحثون عن العقد».

ابتسم هو.

ـ «ليست نقطة ضد ـ قال ـ لأن العادة أيضاً لها قوتها. من المهم بالنسبة للرجل أن تكوي المرأة له قمصانه كما يرغب، أو ألا تضع ملحاً أكثر مما يجب فِي الأرز، أو أن لا تكون فظة عند منتصف الليل».

مررت المنديل على شفاهها، التي كانت قد نظفتها.

ـ «في المقابل أنت تحب أن تكون فظاً عند منتصف النهار».

اختار هو أن يضحك. اقترب النادل مع شرائح اللحم، وأوصياهم ـ معلّقاً ـ ليثقبوا بعض الشقوق ليتأكدوا من أن البطاطا المقلية ناضجة، ثم انسحب بتكشيرة يبدو أنها منذ خمسة عشرة عاماً كانت ابتسامة.

علّقت حول الرقائق، وبقي مع ذلك وجهاً لخمسة عشر عاماً كان يبتسم.

ـ «حسناً، لا تغضبي» ـ قال ـ «أردت أن أشرح لك أن العادة مهمة بحد ذاتها، ولكنها تؤثر في الوعي أيضاً».

ـ «لا أقل من هذا؟»

ـ «دققي قليلاً، إن لم يكن المرء غبياً، سينتبه إلى أن الاعتياد يقلل مع الوقت من الاهتمام».

ـ «أوه!».

ـ «يبدأ المرء بأخذ الأمور باستخفاف ما، فالتجديد يختفي، أخيراً، حتى الحب يصبح في كل مرة حبيس حركات ولفتات، في ساعات دوام».

ـ «وهل هذا سيء؟»

ـ «أنا حقاً لا أدري» .

ـ «كيف؟ وماذا عن الضمير؟» ـ «أوه، نعم. هذا ما كنت بصدده. ولكن الذي يحدث أنك تنظرين إلي وتصرفيني عن حديثي».

ـ «حسناً، أعدك أنني سأنظر إلى البطاطا المقلية».

ـ «كنت أقصد، في العمق، أن للمرء أخباراً عن هذه الآلية. فالمرء يعلم أن امرأة مثلك...، امرأة أخرى من جديد، لها على الزوجة الأولى ميزة بشكل ما غير مخلص.

توقفت هي عن الأكل وأودعت الشوكة والسكين في الصحن بعناية».

ـ «لا تفهميني خطأً» ـ قال هو ـ «إن الزوجة هي شيء معروف، معروف بدقة. ليس هناك مغامرة، هل تفهمين؟ امرأة أخرى..».

ـ «أنا، مثلاً».

ـ «امرأة أخرى، رغم أنه مع الوقت سيحكم عليها بالسقوط في العادة، إلا أنها الآن لها ميزة الأمر الجديد. يتطلع المرء بشوق إلى ساعة معينة في اليوم، باب ما يفتح، حافلة ما تصل، غداء وسط البلد. يشعر حينها أنه شاب، وهذا أمر ضروري، من حين إلى آخر».

ـ «والضمير؟»

ـ «يظهر الضمير في اليوم الأقل توقعاً، عندما يفتح المرء الباب أو عندما يحلق أو ينظر بحرية في المرآة.

لا أعرف إذا ما كنت تفهمينني. في البداية يكون هناك فكرة عن آلية السعادة، ولكن بعد ذلك تقبل تصويبات لهذه الفكرة، وفقط عندما تجري كل التصويبات يكتشف المرء أنه قام بالغش».

ـ «هل ترغبان بالحلوى؟» سأل النادل، ظهر بشكل مفاجئ فوق رأس المرأة.

ـ «اثنان من (الكاسترد) على الطريقة الإسبانية». قالت. وهو لم يعترض. انتظر أن يبتعد النادل ليتابع كلامه.

ـ «إنه مثل هؤلاء الذين يدّعون الوحدة ويخدعون أنفسهم في النهاية».

ـ «لقد استخدمت هذا التعليق في الصيف الماضي، في (فلوريستا). ولكني عندها طبقته على شيء آخر».

فتحت هي حقيبتها، أخرجت المرآة وقوّمت شعرها.

ـ «هل تريد أن أقول لك الانطباع الذي يسببه لي خطابك؟»

«حسناً». ـ «أعتقد أنه سخيف بعض الشيء، هل تعلم؟»

ـ «إنه سخيف. أنا متأكد من هذا».

ـ «انظري، لن يكون سخيفاً إذا ما قلتِه لنفسك. ولكن لا تنسي أنك تقولينه لي».

وضع النادل الكسترد فوق الطاولة. وطلب هو الحساب بإشارة.

ـ «انظري يا ماتيلدا» ـ قال ـ «لنتجنب اللف والدوران. أنت تعرفين أنك تعجبينني كثيراً».

ـ «ما هذا؟ بيان؟ هدنة؟»

ـ «دائماً كنت تعرفين ذلك، منذ البداية».

ـ «حسناً، لكن، ما هو الذي عرفته؟»

ـ «إنك قادرة على الحصول على كل شيء».

ـ «أوه نعم... ومن هو كل شيء؟ أنت!؟»

انكمش هو من كتفيه، حرك شفتيه دون أن يقول شيئاً، ثم نفخ أكثر مما لو كان تنهيدة، ولوّح بورقة نقدية بيده الشمال.

اقترب النادل وترك الباقي في صحن الحساب، دون أن تفوته أي لفتة، ودون إغفال لمحة واحدة. أخذ الإكرامية، قال «شكراً» وابتعد ماشياً إلى الخلف.

ـ «أنا واثق أنك لن تفعليها ـ قال هو ـ، ولكن لو قلت لي الآن، لنذهب»، لكنت ذهبت. إنك لن تفعليها، لأنه من الواضح أنك لا تريدين أن تحملي عبء ثقل الضمير، إضافة إلى أنك لو فعلتِه لن يكون ما أفكر به.

حركت هي يدها المتسخة حتى هدأت فوق يده. حدقت فيه، كما لو كانت تريد أن تخترقه.

ـ «لا تقلق». قالت بعد صمت، وسحبت يدها. «يبدو أنك تعرف كل شيء».

نهضت واقفة وساعدها بوضع معطفها. عندما خرجا، افتعل النادل انحناءة رأس. رافقها هو حتى الزاوية. بقيا صامتين لبعض الوقت. ولكن قبل الصعود إلى الحافلة، ابتسمت هي وشفاهها مضغوطة، وقالت: «شكراً للغداء». ثم ذهبت.

رغبة بالمزاح

في البداية لم يكن يريد أن يصدق ذلك، ولكنه اقتنع فيما بعد، ولم يكفّ عن تناول الموضوع على سبيل المزاح. الضجيج الذي كان أحياناً على شكل تقطّع متساقط، وأحياناً أخرى كطنين مكتوم.

كان لا يمكن تجاهله، ولم يكن الأمر بحاجة لآذان مختصة. لم يكن ارماندو يعرف السبب، لكن الحقيقة أن هاتفه كان مراقباً.

لم يشعر لا بالفخر ولا أنه ملاحق. إنه بكل بساطة، كان يرى أنها حماقة. لم يستطع أبداً التوفيق بين المعنى العام والغامض، الدافق، لكلمة تجسس، وبين بلد شديد التواضع كبلده، دون بترول، دون قصدير، دون نحاس، إضافة إلى الفاكهة، التي لأسباب كثيرة، لم تكن لتثير اهتمام الشمال البعيد، أو الأصواف أو اللحوم التي كان يعتبرها المختصون من المواد المنافسة.

تجسس هنا!، في (اوروغواي) ١٩٦٥، ذات الطبقة المتوسطة والبيروقراطية؟ عجيب! ولكن على الرغم من ذلك فإنهم يراقبون هاتفه. يا للسخرية. بعد كل هذا، لم تكن مكالماته الهاتفية أكثر خصوصية من مقالاته.

بالطبع كان أسلوبه في الهاتف أقل تهذيباً، حتى إنه كان يستخدم

كلمات بذيئة. «ليس هبوطاً» وإنما كان يحاول مجاراة باريبرو. «لا تنسى أن هناك شتائم بذيئة جليلة». وبما أنه اعتبر، على الأقل في هذا المكان، أن مؤسسة التجسس تبدو سخيفة، فقد كرّس وقته ليمارس تمارين مسلية دون حذر. فعندما كان يتصل به باريبرو، الذي كان وحده يعلم السر، كانا يتحدثان بشكل مقصود بنكات قوية ضد الولايات المتحدة، أو ضد (جونسون) أو ضد الاستخبارات الأمريكية.

ـ انتظر، كان يقول باريبرو، لا تتكلم بسرعة فالمختزل لن يستطيع اللحاق بك، ماذا تريد، هل تريد أن يفصلوه من عمله المسكين؟

ـ كيف؟ كان يسأل ارماندو. هل هو مختزل أم آلة تسجيل؟

ـ عادة ما تكون آلة تسجيل، ولكن ربما احترقت، تعطلّت، والآن استبدلوها بمختزل. بمعنى أنه لديهم جهاز لا يحترق.

ـ باستطاعتنا أن نقول لهذا الشخص شيئاً مهماً وخاصاً جداً، حتى ينال ترفيعاً، ألا تعتقد؟

ـ عن الفتنة، مثلاً؟

ـ لا، من المبكر ذلك، وهكذا على هذا المنوال. ثم عندما كانا يلتقيان في القهوة، كانا يتسليان بالتحضير لمقلب اليوم التالي.

ـ وماذا لو أخذنا نذكر أسماء؟

ـ مزورة؟

ـ بالطبع. بل أفضل فلنذكر أسماءهم هم. مثلاً، بيدرو سيصبح رودريغز لارريتا، وأنيبال سيصبح اغوريونو، واندرس تيسخيرا، وخوان بلتران.

بالرغم من ذلك، بعد أيام من تدشين رمز جديد، وأثناء مكالمة عادية، طرأ عنصر جديد. لقد اتصلت ماروخا وكانت تتحدث بأمور من الطبيعي أن تتحدث بها خطيبة منسيّة.

ـ «كل مرة أحس أقل بالخجل. منذ متى لم تأخذني إلى السينما»، «أظن أن أخاك يعامل ثيليا أفضل»، وأشياء من هذا النوع. للحظة نسي هو التجسس الهاتفي.

ـ اليوم أيضاً لا أستطيع. عندي اجتماع.

ـ سياسة؟ سألت هي. عندها، استمع في الهاتف إلى صوت أخن وعلى الفور اثنتان أخريان. الأولى والثالثة طويلة، المتوسطة كانت قصيرة.

ـ هل سعلت؟ سألت ماروخا.

بدأ ارماندو بحسابات ذهنية.

ـ نعم. أجاب.

تلك البحّات الثلاث كانت في الحقيقة أول شيء مثير حصل له منذ أن روقب هاتفه.

ـ حسناً. أصرّت هي. لم تجبني: أم أنه اجتماع سياسي؟

ـ لا إنه حفل توديع عازب.

ـ «أتصور البذاءات التي يقولونها». صمتت ثم أقفلت.

لقد كانت مُحقة. فأخوه يعامل ثيليا جيداً. ولكن تيتو من نوع آخر. كان ارماندو دائماً يقدّره. لترتيبه، لتوازنه، لطريقته في العمل، لطريقته المهذبة في التعامل. بالمقابل، كانت ثيليا، تسخر عادة من هذا المظهر

الحسن، وأحياناً مازحة كانت تطلب صورة لتيتو عندما كان طفلاً. «أريد أن أتأكد إذا ما كان يستعمل ربطة العنق وهو ما زال في الشهر السادس».

لم تكن السياسة تعني تيتو. «إنها قذرة جداً». كان يقولها كأنها بيت شعر.

لم يكن يمانع ارماندو الاعتراف بأنها قذرة جداً، ولكن مع ذلك كان يهتم بالسياسة. بشهاداته، بدخله الجيد، وبشقته ذات الهواء اللطيف، المضاءة جيداً وعطلاته الأسبوعية المقدسة. بصلوات أيام الأحد، لتقدير أمه.

كان تيتو المثل الأعلى للعائلة، المحبوب الذي كان الجميع يظهرون مودتهم لـ ارماندو منذ كان الاثنان يذهبان معاً إلى المدرسة. كان ارماندو يتفوه بمزحات مع باريرو حول الهاتف المراقب، ولكنه لم يتطرق للأمر مع أخيه.

فلقد كانا قد تجاذبا منذ زمن الحوار الأخير والنهائي حول السياسة، وتدخل تيتو بحسم بتعليق خشن:

«لا أعرف كيف توّسخ نفسك بهؤلاء الناس. إنهم أشخاص دون رحمة. جميعهم، اليمينيون كما اليساريون، كما الوسط». نعم، لقد كان تيتو يحتقرهم سواءً. أيضاً كان ارماندو يقدّره في هذا، لأنه لم يكن يستطع أن يشعر بهذه اللامبالاة نفسها.

«على المرء أن يكون قوياً حتى لا يغضب»، فكر، ربما لذلك تيتو لم يكن يغضب.

الثلاث كحات ـ الطويلة، القصيرة، الطويلة ـ عادت لتظهر في ثلاث أو أربع مناسبات، لربما هو تنبيه؟ قرر ارماندو نظرا للشك أن لا يكلم

أحداً بهذا الشأن. ليس فقط تيتو أو والده ـ في نهاية الأمر، العجوز يثق به ـ وإنما أيضاً مع باريرو، الذي كان بلا شك أفضل أصدقائه.

ـ يفضّل أن ننهي المزحات الهاتفية.

ـ ولماذا؟

ـ ببساطة، لأني مللت. كان باريرو يجدها مسلية، ولكنه لم يصر.

ليلة القبض على ارماندو لم تكن قد حدثت أي فوضى، لا طلابية ولا عمالية. فقد كانت المدينة هادئة، وكانت أحد الأوقات الغريبة فلم يكن الجو حاراً ولا بارداً، ودون الريح التي تعصف بشكل خاص في نيسان لـ (مونتفيديو). كان ارماندو آتياً من (ثويداديلا)، بعد منتصف الليل وعند الوصول إلى الساحة اقترب منه شخصان وطلبوا منه وثائقه. كان ارماندو يحمل معه بطاقته الشخصية.

اكتشف أحدهما أنها فاقدة الصلاحية. صحيح. كان عليه أن يجددها منذ عدة أشهر. فكر ارماندو عندما أخذوه، بأن ذلك كان مزعجاً. شتم نفسه عدة مرات لإهماله. لا أكثر. كل شيء سيصبح على ما يرام، قال لنفسه، في منتصف الطريق، بين التفاؤل والخيبة. ولم يحل الأمر.

حقق معه تلك الليلة شخصان، كل في اختصاصه، أحدهما لطيف، ودود، والآخر مع تعبير جدي وبتهذيب سيء في طريقة التعامل.

ـ «لماذا تقول أشياء غير ملائمة في الهاتف؟» سأل اللطيف، بنظرات تشبه تلك التي توجه للأطفال المشاغبين. الآخر، بالمقابل، ذهب إلى الهدف.

ـ من هو بلتران؟

ـ رئيس (الكونغو).

ـ يستحسن ألا تلعب دور الغبي. أريد أن أعرف من هو الذي تناديه أنت والآخر بـ بلتران.

لم يقل ارماندو شيئاً. الآن سيغرسان المسامير تحت أظافره، أو يحرقوا ظهره بسجائر مشتعلة، أو سيخضعونه لصدمات كهربائية في الخصيتين. الموضوع جدي هذه المرة. أثناء قلقه، امتلك الجرأة الكافية ليقول: آه...! أصبح البلد أمة مهمة! مع تعذيب وكل شيء. ـ بالطبع كانت لديه شكوك حول مقاومته التعذيب ـ.

ـ لقد كانت مجرد مزحة.

ـ آه حقاً؟ ـ قال الغليظ ـ انظر، إن الموضوع جدي. وأتت لكمة في نصف أنفه. أحس أن شيئاً تحطم ولم يستطع أن يمنع الدموع التي ملأت عينيه. عندما استقبل اللكمة الثانية في أذنه، ذهب رأسه باتجاه اليمين.

ـ إنه لا شيء. ـ استطاع التفوه مع بعض التأتأة ـ وضعنا أسماء هكذا. لنسخر منكم.

سال الدم على قميصه. مرت قبضة مقفلة على أنفه وأوجعه هذا بشدة.

ـ إذن كنتما تسخران منا؟

ضربه الرجل هذه المرة بقبضة مفتوحة ولكن أقوى من سابقتها، وانتفخت شفته السفلى على الفور.

ـ يا سلام.

وبعدها أتت ضربة على الخاصرة.

ـ هل تعرف ما هي «البيكانا»؟

كلما سمع الآخر يذكر هذه الكلمة، أحس بألم في عضوه ـ «علي أن أحرضه حتى يستمر بضربي. فكر ـ وربما ينسى الآخر هكذا».

لم يستطع أن يجمع كلمات متتابعة، فهكذا استجمع قواه وقال: «خراء».

استقبل الآخر الشتيمة كما لو كانت بصقة في نصف وجهه، ولكنه ابتسم على الفور.

ـ لا تظن أنك تصرفني. ما زلت طفلاً. ما زلت أذكر ما تريدني أن أنساه.

ـ دعه ـ قال عندها اللطيف ـ دعه، لا بد أن يكون صحيحاً ما يقوله.

كان صوت الرجل ينم عن شيء نهائي، قرار قد اتخذ. استطاع ارماندو التنفس. ولكنه على الفور صار دون قوى، وغاب عن الوعي.

بطريقة ما، كانت ماروخا المستفيدة المباشرة من هذا الاعتقال. إنها الآن إلى جانبه طوال النهار. كانت تعتني به، تدلله، تقبله، وتشبعه مشاريع. وكان ارماندو يشكو أكثر من المعتاد، لأنه في العمق، لم يزعجه هذا التعامل الجديد. وحتى فكّر أن يتزوج قريباً، ولكن تعامل باستغراق حذر مع ما حصل، مع اللكمات، ربما حصل معه شيء في رأسه.

لطف تلك اليد السمحة توقف فجأة. فتح ارماندو عينيه وهناك كان الجميع. الأب، الأم، باريرو، تيتو، ثيليا.

ـ ما الذي فعلته حتى لا تتكلم؟

سأل باريبو، وعاد هو ليقدم إيضاحاً كعادته: «لقد كانت بضع ضربات، ولكن نعم، قوية جداً. أقواها كانت الركلة».

ـ لا أعرف ماذا كنت سأفعل لو وضعوا البيكانا.

أخذت الأم تبكي، منذ ثلاثة أيام وهي تبكي.

ـ «في الجريدة» ـ قال الأب ـ «أخبروني أن النقابة ستنشر عريضة احتجاج».

ـ احتجاج، عريضة؟ قال باريبرو منزعجاً، ولكن لم يكن أحد ليخلصه من تلك اللكمات.

سندت له ثيليا يده المستندة على المقعد، وقبلت ماروخا القسم الغير ملفوف من جبينه.

أحس اماندو بالألم، ولكنه أحس أنه في قمة الفرح.

كان تيتو، خلف باريبرو، أشد صمتاً من المعتاد. فجأة أوجعته ماروخا.

ـ وماذا تقول الآن؟ ما زلت متزناً كما جرت العادة؟

ابتسم تيتو، قبل أن يجيب بهدوء.

ـ كنت دائماً أقول لارماندو أن السياسة هي شيء قذر.

ثم سعل ثلاث مرات متتابعة. واحدة طويلة، أخرى قصيرة، وأخرى طويلة.

الموت

ـ «ينبغي أن تُعد نفسك للأسوأ».

هكذا قال أوكتافيو، ـ بنبرة قلقة وحميمة ـ الذي لم يكن مجرد طبيب وإنما صديق الدراسة القديم.

لم تتوقف العبارة المذكورة عندما سمع ماريانو، وإنما اصطدمت ببطنه حيث يعاني الألم منذ نحو أربعة أسابيع. حاول في تلك اللحظة التصنع، وابتسم بمرارة، حتى إنه قال: «لا تقلق فأنا جاهز منذ وقت».

كان يكذب، لم يكن جاهزاً، ولم يكن صادقاً أبداً، عندما طلب من أوكتافيو بحق الصداقة القديمة أن يخبره بالتشخيص الحقيقي: «أقسم لك أنني قادر على فعل الشيء نفسه معك»، قالها آملاً أن يخبره صديقه القديم بالحقيقة. نعم، بشرط أن تكون الحقيقة خلاصه وليس حتفه.

لكن أوكتافيو أخذ العلاقة القديمة التي تربطهما على محمل الجد، وكرّس له ساعة ونصف الساعة من وقته الثمين ليفحصه ويعيد فحصه، بعد ذلك، وبعيون مبللّة من خلف زجاج النظارات السميكة، حاول مجاملته.

ـ «من الصعب أن أخبرك بشيء، عليك القيام بتحاليل، صور أشعة، فحص طبي شامل. وهذا يستغرق بعض الوقت. ما بإمكاني أن أقوله

فقط، أنني لم يتكون لدي انطباع جيد إثر الفحص الأولي. لقد أهملت نفسك كثيراً. كان عليك أن تزورني منذ بدء الأوجاع».

ثم تلت ذلك، الضربة المباشرة الأولى:

ـ «بما أنك تطلب مني، باسم صداقتنا، أن أكون في غاية الوضوح معك، سأقول لك...، بسبب الشكوك...» وتوقف، خلع نظارته، ونظفها بطرف الرداء. بلفتة بالكاد وقائية، بدأ ماريانو يفكر في خضم الترقبات الموجعة.

ـ «بسبب الشكوك، ماذا؟» سأل، محاولاً أن تكون نبرته هادئة وغير مكترثة. وهنا انهارت السماء فوقه.

ـ «ينبغي أن تعد نفسك للأسوأ».

هذا ما كان قبل تسعة أيام. بعد ذلك جاءت الفحوصات، صور الأشعة،...الخ، كان قد احتمل وخزات الإبر، والبقاء عارياً، لأكثر من مرة بينما كان يعتقد أن هذا سيكون فقط في مناسبة واحدة.

عندما عاد إلى المنزل ووجد نفسه وحيداً ـ لأن اغويدا قد خرجت مع الأولاد، ووالده في الداخل ـ، فقد السيطرة الكاملة على نفسه، وهناك في غرفته العابقة بشمس الخريف وقف أمام النافذة المفتوحة على مصراعيها، وأخذ يبكي كالطفل، ومسح دموعه دون عناء.

«أمل، آمال، هناك أمل هناك آمال». مرّة بالمفرد ومرّة بالجمع، أعادها عليه اوكتافيو بمئات الطرق المختلفة، مع ابتسامات، مع نكات، مع شفقة، مع ربتات حميمية، مع عناقات قصيرة، مع ذكريات من أيام الدراسة، بتحيات إلى اغويدا، بتقطيب مرتاب، بعيون ضيقة، بنظرات قلقة، بأسئلة عن الأطفال.

من المؤكد أنه ندم على صراحته الفجّة، وكان يريد امتصاص آثار الصدمة. لكن، ماذا لو كان هناك أمل؟ أمل واحد فقط. ولو كان أملاً طفيفاً، طفيفاً جداً. وإذا ما كانت التحاليل والألواح ومتاعبها الأخرى، ستقول بلغتها الباطنية وتنبؤاتها المصيبة، أن الحياة إذن لسنوات أخرى؟ لم يطلب كثيراً: خمس سنوات، عشرة أفضل. الآن حيث يعبر ساحة الاستقلال ليلتقي باوكتافيو وحكمه الأخير: مؤبد أم مؤجل أم إعفاء، شعر أن ذكر الأمل هذا بمفرده وجمعه سيثمر على الرغم من كل شيء. ربما يعود هذا الشعور إلى تراجع الألم بشكل ملحوظ. لم يكن باستطاعته إخفاء، العلاقة التي كانت بين هذا التحسّن والكبسولات التي نصحه بها اوكتافيو ويتناولها بانتظام. ولكن توقعاته لم تعد تطاق كلما اقترب أكثر من الهدف. ارتخت رجليه، في لحظة معينة، وحدّث نفسه أنه لا يستطيع الوصول إلى العيادة في هذه الحالة، وقرر الجلوس على مقعد في الساحة. رفض بإيماءة من رأسه عرض ماسح الأحذية ـ لدرجة أنه لم يكن يشعر بقوة للشروع بالحوار المعهود عن الوقت والتضخّم ـ ، وانتظر ليهدأ. اغويدا وسوزانا. سوزانا واغويدا. ما هي أفضلية الترتيب؟ حتى في هذه اللحظات غير قادر على تحديد ذلك؟ اغويدا هي التفهم وعدم التفهّم متضادين، حدود دون نزاع، الحاضر المكرر ـ لكن أيضاً، هناك حرارة لا تعوّض في هذا التكرار ـ ، لسنوات وسنوات من المعرفة المتبادلة، لدرجة المعرفة عن ظهر قلب. الطفلين. كانت سوزانا المرأة الخفيّة، المفاجأة، ـ لكن أيضاً المفاجأة التي راحت تتطوّر باتجاه العادة ـ ، المناطق غير المعروفة في الحياة، غير المشتركة، في الظل. المشاجرة والمصالحة المؤثرتان؛ الغيرة المحافظة والغيرة الثائرة، الحدود المترددة، المداعبة الجديدة ـ التي، ستغدو تدريجياً مشابهة

للسلوك المتكرر ـ ، لا على التنبؤ وإنما التخمين، لا المعرفة عن ظهر قلب ولكن بالحدس. اغويدا وسوزانا، سوزانا واغويدا. لم يكن بإمكانه اتخاذ قرار. ولم يستطع.

انتهى من تحذير نفسه في اللحظة التي كان عليه فيها أن يصافح صديقاً قديماً في العمل. ببساطة لأنه كان يفكر بهما كأنهما أشياء ملكه، وليس كأنهما أشخاصاً يعيشون حياتهم المستقلة ولهم خصوصيتهم. اغويدا وسوزانا، سوزانا واغويدا، كانتا في هذه اللحظة كأنهما جزءا من جسده، مثل هذا التعب الحقير الذي يتوّغل فيه ويهدده. إضافة إلى ذلك كان هناك كوكو وفوق ذلك سيلفيتا، واضح، لكنه لم يكن يريد، لا، لم يكن يريد، لا، لا، لم يكن يريد الآن التفكير في الأولاد، على الرغم من أنه كان يعرف أنه في لحظة ما كان عليه أن يواجه ذلك، لم يكن يريد أن يفكر لأنه عندها سينهار، نعم، ولن يمتلك حتى القوة للوصول إلى العيادة.

مع ذلك، كان عليه أن يكون صادقاً، وأن يعترف مسبقاً بأن يكون أقل أنانية، وأكثر تسامحاً بكثير، لأنه إذا مزق نفسه في هذه الأفكار ـ ومؤكد أنه سيتمزق ـ لن يكون ذلك نتيجة التفكير في نفسه، وإنما بهم، أو على الأقل فيهم أكثر من نفسه، بل بالحزن الذي يترقبهم من درايتهم أنهم سيبقون من دونه. من دونه، من دون أحد، من دون شيء. من دون الأولاد، من دون المرأة، من دون العشيقة. لكن أيضاً دون الشمس ـ هذه الشمس ـ ، دون هذه الغيوم النحيلة، الرقيقة. دون قراءته المتأنية للجريدة مع القهوة، جالساً قرب النافذة المطلة على (الانديز)، دون الفكاهات العابرة مع النادل، دون الدوار اللطيف الذي يحضره عند

النظر إلى البحر، لاسيما عند النظر إلى السماء، من دون هؤلاء الناس المستعجلين، السعيدين لأنهم لا يعرفون شيئاً عن أنفسهم، يكذبون ليضمنوا مقعدهم في الأبدية، أو ليسردوا عظمة بطولة الآخرين. دون استراحة تقوم مقام الدواء، دون الكتب المقفلة، دون الكحول كوسيلة، دون الحياة كصلاة، دون الحياة، بكل بساطة.

هنا وصل بأسه إلى القاع، وللمفارقة، هذا ما سمح له بالاعتدال. نهض واقفاً، تأكد من أن رجليه تتجاوبان، وأخذ يقطع الساحة. دخل المقهى، طلب قهوة، ارتشفها ببطء، دون اضطراب داخلي أو خارجي، وعقله المشغول. شاهد الشمس كيف بدأت تتلاشى، كيف بدأت شعاعاتها الأخيرة تختفي. دفع قهوته، قبل أن تنار الأضواء، ترك إكرامية كعادته ومشى أربعة مربعات، انعطف في شارع يميناً، وتوقف في منتصف المربع، صعد إلى الطابق الخامس وضغط زر الجرس إلى جانب اللوحة البرونزية: دكتور. (اوكتافيو ماسا)، طبيب.

ـ ما كنت أخشاه.

ما كنت أخشاه، تعني في هذه الظروف، مرادفاً للأسوأ. كان اوكتافيو قد تحدث طويلاً، بهدوء، لاجئاً من دون شك إلى استخدام قصارى جهده في العزاء والتشجيع، لكن ماريانو كان يستمع إليه بصمت، حتى مع ابتسامة هادئة، لم يكن مقصدها تضليل صديقه، ولكنه حتماً ضلله.

ـ «ولكنني بصحة جيدة»، قال للتو عندما قاطعه اوكتافيو «إضافة إلى...» قالها الطبيب بنبرة الذي يخرج ورقة قد أخفاها في ذراعه

كساحر، «إضافة إلى أننا سنقوم باللازم، وأنا متأكد، ـ هل تفهم ـ متأكد من أن العملية ستكون ناجحة».

من جانب آخر ليس هناك عجلة. لدينا على الأقل أسبوعان لتقويتك بهدوء، بصبر، وبانتظام.

أنا لا أقول أن عليك أن تفرح يا ماريانو، ولا أن تهمل الأمر، ولكن أيضاً ألا تأخذ الأمر بجدية بالغة. إننا اليوم مجهزون لنعالج ضد....» وهكذا بشكل متوالٍ.

في هذه اللحظة أحس ماريانو برغبة ملحة لمغادرة العيادة، ليس بالضبط ليعود إلى يأسه. لكن تأكيد التشخيص لمرضه أثار فيه، الدهشة، وشعوراً بالراحة، ولكن أيضاً رغبة في أن يكون لوحده، شعور يشبه الفضول الملح ليستمتع باليقين الجديد.

هكذا، وبينما كان اوكتافيو يتابع كلامه «إضافة إلى أنني ـ وللمصادفة ـ لي علاقة جيدة مع طبيب البنك الذي تعمل به، لذا لن يكون هناك أي عائق أمامك لتأخذ كل الوقت اللازم و...، ابتسم ماريانو، ولم تكن ابتسامته مريرة، مستاءة، إنما ـ ربما لأول مرة في أيام ـ كانت نوعاً ما راضية، مقتنعة.

منذ أن خرج من المصعد، مشاهداً الشارع من جديد، واجه حالة من النشاط خُيّل إليه أنها نبوءة.

كان ليلاً، طبعاً، ولكن لماذا بقيت الأضواء بعيدة؟ لماذا لم يفهم، ولم يكن يريد أن يفهم، الكلمات في الشاشة المتحركة على الواجهة المضيئة أمامه؟

الشارع كأنه مجرى نهر كبير، نعم، لكن لماذا هذه الأشكال، التي

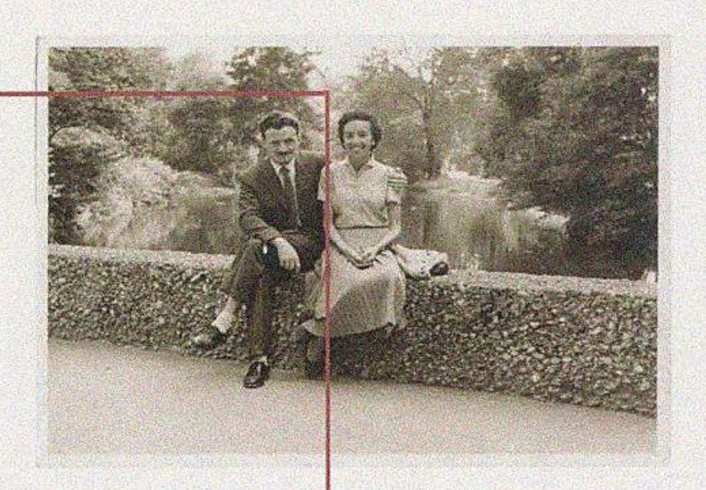
كانت تمر على مسافة نصف متر منه، كانت رغم ذلك صوراً مفككة، كما لو أنها تشاهد بفيلم ملون لأنه في الحقيقة تحسين له، وبشريط صوت دون ترتيب، الذي كان عبارة عن ضجة تصله عبر وسائل لا منتهية، تترك في سمعه صدىً مرتطماً بأصداء أخرى مرتطمة؟

كان الشارع كقناة تتسع أكثر فأكثر، حسناً، لكن، لماذا كانت البيوت قبالته تصغر حتى تختفي، إلى أن تتركه محبوساً في دهشته؟

إنه قناة، ليس أقل من قناة، لكن، لماذا أضواء السيارات التي كانت تقترب بسرعة شديدة، كانت تصغر حتى تبدو مصابيح صغيرة؟ تملّكه شعور بأن الحجر الذي يقف عليه تحول فجأة إلى جزيرة، حجر أبرص، لتعامله الحجارة الأخرى بعنصرية تعسفية. هروب مبتذل، هذا هو، كيف لم يتنبه لذلك من قبل؟ على أية حال، ذلك الهروب الغثياني للأشياء وللأشخاص، للأرض وللسماء، كانت تمنحه قوة شديدة. هل هكذا يكون الموت، فقط هكذا؟ فكر بشراهة غير متوقعة. كان ما زال حياً على الرغم من ذلك.

لا اغويدا ولا سوزانا، ولا كوكو ولا سيلفيتا، ولا اوكتافيو، ولا والده في الداخل. فقط هذا الضوء، الشديد، الشديد في البداية، من يدري من أين يأتي، ولن يستمر شديداً فيما بعد، يستحق أن تترك الجزيرة المكونة من الحجر الأصغر فيما بعد، كان الأمر يستحق المواجهة في منتصف الشارع، الذي كان يصبح أصغر، وأصغر، نعم، المتواري تماماً، هنا لا يهم أن يهرب الآخرون، هنا بالضبط، الضوء في كل مرة، يقترب مبتعداً، هنا المصباح، في كل مرة أبعد وأقرب، على بعد عشرة كيلومترات وأيضاً عشر سنتمترات من عيون لم يعد لها الحق لتلمع أكثر من ذلك.

الفهرس



بعد أكثر من نصف قرن، في يوم ١٥ كانون أول من العام ٢٠٠٠، دخل رودريغو إلى صالة سينما، ليستمتع بالهواء البارد أكثر منه بالفيلم. ففي عمره، شدة الحر كانت تضايقه، تمنعه من التنفس بسهولة.

فجأة حصل انقطاع في الفيلم وأضيئت الصالة. لم يكن هناك الكثير من الناس، في مجموعهم عشرون متفرجاً. ثلاثة صفوف إلى الأمام، أيضاً كانت وحيدة، عجوز نحيلة لكن انيقة. عندما بدأ عرض الفيلم، تركت المرأة مقعدها وأتت لتجلس جانب رودريغو.

ـ جنابك رودريغو ازناريا، صحيح؟

ـ نعم.

ـ يا للحظ. أنا ناتاليا اوريبي، هل تذكر؟ فتح رودريغو عينيه الشغوفة. لم يكن بإمكانه أن يصدق.

تصميم: منال العويبيل
Manalines Design

